شرح

الستة الأصول

تأليف

الإمام العلامة

محمد بن عبد الوهاب



شرح فضيلة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين

شرح فضيلة الشيخ
صالح بن عبد الله الفوزان

شرح فضيلة الشيخ
خالد المصلح

جامع الأصول

بشرح

الستة الأصول

تأليف

الإمام العلامة

محمد بن عبد الوهاب

شرح أصحاب الفضيلة

فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

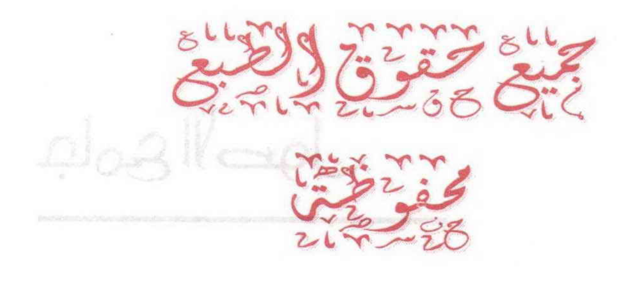
فضيلة الشيخ العلامة

صالح بن فوزان آل فوزان

فضيلة الشيخ العلامة

خالد بن عبد الله بن محمد المصلح

دار الكوثر للنشر وا لتوزيع



رقم الإيداع: 13314 / 2008



دار الكوثر

1 ش الإمام محمد عبده —خلف الجامع الأزهر

ت: 0103172827 ت: 25141711

بسم الله الرحمن الرحيم

من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب -ستة أصول بيَّنها الله تعالى بيانًا واضحًا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا غلط فيها كثير من أذكياء العالم، وعقلاء بني آدم إلا أقل القليل.

قال ابن العثيمين:

قوله: «باسم الله» . ابتدأ المؤلف -رحمه الله تعالى- كتابه بالبسملة اقتداء بكتاب الله -عزَّ وجلَّ- فإنه مبدوء بالبسملة، واقتداء برسول الله ﷺ . فإنه يبدأ كتبه ورسائله بالبسملة.

والجار والمجرور متعلق بفعل محذوف مؤخر مناسب للمقام تقديره هنا: بسم الله أكتب.

وقدرناه فعلًا؛ لأن الأصل في العمل الأفعال. وقدرناه مؤخرًا لفائدتين:

الأولى: التبرك بالبداءة باسم الله تعالى.

الثانية: إفادة الحصر؛ لأن تقديم المتعلق به يفيد الحصر.

وقدرناه مناسبًا؛ لأنه أدل على المراد، فلو قلنا مثلًا عندما نريد أن نقرأ كتابًا باسم الله نبتدئ، لا يدري بماذا نبتدئ، لكن بسم الله نقرأ أدل على المراد.

قوله: «الله» . لفظ الجلالة عَلَم على الباري -جلَّ وعلا- وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء، حتى إنه في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: 1، 2] .

لا نقول: إن لفظ الجلالة (الله) صفة، بل نقول: هي عطف بيان؛ لئلا يكون لفظ الجلالة تابعًا تبعية النعت للمنعوت، ولهذا قال العلماء: أعرف المعارف لفظ (الله)؛ لأنه لا يدل على أحد سوى الله عزَّ وجلَّ.

قوله: «الرحمن» . الرحمن: اسم من الأسماء المختصة بالله، لا يطلق على غيره. ومعناه: المتصف بالرحمة الواسعة.

قوله: «الرحيم» . الرحيم: اسم يطلق على الله -عزَّ وجلَّ- وعلى غيره. ومعناه: ذو الرحمة الواصلة، فالرحمن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة، فإذا جمعا صار المراد بالرحيم: الموصل رحمته إلى من يشاء من عباده، كما قال الله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾[العنكبوت: 21] ، والمراد بالرحمن: الواسع الرحمة.

قوله: «ومن أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول إلخ» . شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- له عناية بالرسائل المختصرة التي يفهمها العامي وطالب العلم، ومن هذه الرسائل هذه الرسالة (ستة أصول عظيمة)، وهي:

الأصل الأول: الإخلاص، وبيان ضده وهو الشرك.

الأصل الثاني: الاجتماع في الدين، والنهي عن التفرق فيه.

الأصل الثالث: السمع والطاعة لولاة الأمر.

الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، ومن تشبَّه بهم وليس منهم.

الأصل الخامس: بيان من هم أولياء الله.

الأصل السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسُّنَّة.

وهذه الأصول أصول مهمة جديرة بالعناية، ونحن نستعين بالله تعالى في شرحها، والتعليق عليها بما يَسَّر الله.

قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول ...**».

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا شك أن الله سبحانه أنزل القرآن تبيانًا لكل شيء، وأن الرسول ﷺ بين هذا القرآن بيانًا شافيًا، وأعظم ما بينه الله ورسوله في هذا القرآن قضية التوحيد والشرك؛ لأن التوحيد هو أصل الإسلام وأصل الدين، وهو الذي تنبني عليه جميع الأعمال، والشرك يبطل هذا الأصل ويفسده، ولا يكون له وجود؛ لأنهما أمران متضادان ومتناقضان لا يجتمعان أبدًا، فلذلك الله سبحانه بين هذا الأصل في كتابه في جميع القرآن، فلا تكاد تخلو سورة من ذكر التوحيد وذكر الشرك، والناس يقرءون القرآن ويرددونه.

ولكن قل من يتنبه لهذا البيان، ولذلك تجد كثيرًا من الناس يقرءون القرآن ويقعون في الشرك ويخلون بالتوحيد، مع أن هذا الأمر واضح في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ؛ لأنهم يمشون على العوائد وما وجدوا عليه آباءهم ومشايخهم فالأهل عندهم ما وجدوا آباءهم ومشايخهم وأهل بلدهم، ولا يفكرون في يوم من الأيام أن يتأملوا ويتدبروا القرآن، ويعرضوا عليه ما كان عليه الناس، هل هو صحيح أو غير صحيح؟

بل أخذهم التقليد الأعمى لآبائهم وأجدادهم، واعتبروا أن القرآن إنما يُقرأ للبركة وحصول الأجر بالتلاوة، وليس المقصود أن يُقرأ للتدبر العمل بما فيه.

قلَّ من الناس من يقرأ القرآن لهذا الغرض، إنما يقرءون للتبرك به أو التلذذ بصوت القارئ، والترنم به، أو لقراءته على المرضى للعلاج.

أما أن يُقرأ للعمل به والتدبر والصدور عما فيه وعرض ما عليه الناس على هذا القرآن، فهذا لا يوجد إلا من قليل من الناس، لا نقول إنه معدوم، لكنه في أقل القليل، ولذلك تجد القرآن في واد، وأعمال بعض الناس في وادٍ آخر، لا يفكرون في التغيير أبدًا، ولو حاول مجددٌ أو

داع إلى الله أن يغير ما هم عليه، لقاموا في وجهه واتهموه بالضلال، واتهموه بالخروج على الدين وأنه أتى بدين جديد وأنه وأنه ...

كما حصل هذا للشيخ نفسه لما حاول رحمه الله أن يرد الناس إلى القرآن وما دل عليه القرآن، ويغير ما هم عليه من العادات والتقاليد الباطلة، ثاروا في وجهه وبدَّعوه وفسَّقوه، بل وكفروه واتهموه باتهامات ، لكن في الحقيقة هذا لا يضر وليس بغريب، فإن الأنبياء قيل فيهم ما هو أشد من ذلك، لما أرادوا أن يغيروا ما عليه الأمم من عبادة غير الله، قيل في حق الأنبياء ما قيل، فكيف بالدعاة والعلماء؟ ! فلا غرابة في هذا، وهذا لا ينقص من أجر العالم والداعية، بل هذا يزيد في حسناته عند الله سبحانه وتعالى.

وإنما يرجع بالنقص على من قاله ومن تفوَّه به وكتبه، فإن هذا يرجع عليه، أما العلماء المخلصون والدعاة إلى الله، فلا يضرهم ما قيل فيهم، بل يزيد في درجاتهم وحسناتهم، ولهم قدوة بالأنبياء وما قيل في حقهم وما اتهموا به، والله تعالى يقول لنبيه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت: 43].

فالشيخ رحمه الله في هذه الكلمات يبين شيئًا من هذا الأمر العجيب: أن الناس يقرءون القرآن، ويكثرون من قراءته ويختمونه ويحفظونه ويرتلونه، ويركزون اهتمامهم بألفاظ القرآن وتجويده وأحكام المد، وأحكام الإدغام، والغنة، والإقلاب، والإظهار والإخفاء، يعتنون بهذا عناية فائقة، وهذا شيء طيب.

ولكن الأهم والمقصود ليس هذا، المقصود تدبر المعاني، والتفقه في كتاب الله عز وجل وعرض أعمالنا وأعمال الناس على كتاب الله، هل هي موافقة لكتاب الله أو مخالفة؟

هذا هو المطلوب، أن نصحح أوضاعنا، وأن ننبه على أخطاء الناس، لا بقصد التشهير وقصد النيل من الناس، بل بقصد الإصلاح والنصيحة.

قال الشيخ خالد المصلح:

لا فوز للعبد ولا نجاة إلا بإفراد ربه بالعبادة والإخلاص له، هذا الأصل الأصيل هو الذي أنزل الله من أجله الكتب، وأرسل للدعوة إليه الرسل، وعلى هذا الأصل يقوم سوق الجنة والنار، وشرع لأجله الجهاد، وكل الأوامر والنواهي في الشريعة تبع له، فعلى العبد أن يحرص على إخلاصه وتوحيده.

بيّن الله عز وجل الدين بيانًا واضحًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فيقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة

على قدرة الملك الغلّاب ستة أصول بينها الله تعالى بيانًا واضحًا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا غلط فيها كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم، إلا أقل القليل!» .

هذا هو الدرس المتعلق بستة أصولٍ عظيمةٍ مفيدة، وهو من رسائل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، والظاهر أن هذه الرسالة مقتطعة من كتابات الشيخ رحمه الله تعالى؛ فإنه رحمه الله لم يفتتحها بافتتاحٍ واضحٍ فيما نرى -في النسخة التي بين أيدينا- ولعل لها مقدمةً مستقلةً أو محذوفة.

أشار الشيخ رحمه الله تعالى في بداية هذه الرسالة المباركة إلى أن هناك أصولًا ستة، هذه الأصول الستة بينها الله سبحانه وتعالى بيانًا واضحًا شافيًا ساطعًا في كتابه الحكيم.

قال رحمه الله: «من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلّاب ستة أصول بينها الله سبحانه وتعالى بيانًا واضحًا للعوام» .

قوله: «للعوام» ليس المراد أن ذلك خاصٌّ بهم، بل مراده أن تلك الأصول الستة واجبةٌ على الجميع، وأنها واضحة لعموم الناس، يدركها الذكي والبليد، ويدركها العالم والجاهل، ويدركها كل من سمع الخطاب كائنًا من كان إذا كان قد توافر فيه عقل الإدراك؛ فإن كل من توافر فيه عقل الإدراك والتمييز فإنه يدرك هذه الأصول من كلام الله عز وجل.

والمؤلف رحمه الله بدأ الرسالة بالتعجب من وضوح هذه الأصول وغفلة الناس عنها، والتعجب هنا معناه: الدهشة والانبهار من هذه الحال، بغضّ النظر هل سببه معلوم أو غير معلوم، وهل سببه معروف أو غير معروف؛ فإنه ليس من لازم العجب جهل السبب كما هو معلوم مقرر؛ فإن العجب يطلق على ما جهل سببه، ويطلق على ما علم سببه ولكنه خارج عن العادة، وخارج عن نظائره وأمثاله مما يظهر ويلفت النظر، فالكلام هنا ليس بحثًا في السبب، وإنما هو بيان للتعجب من حال هؤلاء.

قال رحمه الله تعالى: «من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلّاب» «الغلّاب» ليس من أسماء الله عز وجل، ولكن ذكره المؤلف رحمه الله تعالى على وجه الصفة، ومعلوم أن باب الأوصاف أوسع من باب الأسماء، فالأسماء توقيفية، أما الأوصاف فالأصل فيها التوقيف، لكنها أوسع من باب الأسماء؛ لأن الأسماء لا بد فيها من توقيف على الكتاب والسنة، أما الصفات فيمكن أن تشتق من الأفعال، فكل فعل ثبت لله عز وجل فإنه مشتق منه صفة لله سبحانه وتعالى، وقد جاء في بعض الروايات والآثار وصفه جل وعلا بالغالب، وهو من معاني اسمه العزيز؛ فإن الغالب هو من معاني اسم العزيز كما تقدم؛ لأن من معاني العزّة الغلبة والقهر.

قال رحمه الله: «ستة أصول بينها الله تعالى بيانًا واضحًا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا غلط فيه كثير من أذكياء العالم» يعني: بعد هذا البيان الذي لا يتوقع بعده وقوع الخطأ؛ لأنه كان بيانًا واضحًا، وما كان بيانه واضحًا ساطعًا يدركه عوام الناس ولا يحتاج إلى علماء وأفذاذ فإن المتوقع فيه ألا يكون فيه غلط، وألَّا يغفل عنه، وألَّا يقع فيه خلاف؛ لوضوحه وظهور أدلته وآياته.

وقوله رحمه الله: «ثم بعد هذا غلط فيه كثير من أذكياء العالم».

الذكاء: هو حدة في الفهم يدرك بها الإنسانُ الغامضَ من الأمور، ولا صلة بين الذكاء والإيمان، إنما الصلة بين الزكاء والإيمان؛ لأن الزكاء في القلب، والذكاء في الفهم، فقد يكون الإنسان ذكيًا كافرًا، لكنه لا يمكن أن يكون زكيًا إلا إذا كان مؤمنًا بالله ورسوله.

فقوله رحمه الله: «أذكياء العالم» أي: فطناؤه من أصحاب الفهم الذين لا تخفى عليهم الأمور.

وقوله رحمه الله: «وعقلاء بني آدم إلّا أقلّ القليل» يعني: غلط فيها كثير إلا أقل القليل الذين لم يغلطوا فيها، ونسأل الله عز وجل أن نكون ممن يدخل في قوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: 13] وهذه هي حال بني آدم، فإن أكثرهم ضالون، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: 116]، ولذلك لا يجوز الاستدلال على صحة القول أو المذهب أو الطريقة بكثرة السالكين لها، وإن هذا أمر مهم؛ لأن الله عز وجل لم يذكر الكثرة على وجه المدح، بل قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 8]، فالكثرة لا تدل على صحة الطريق، ولا على سلامة المنهج، بل الذي يدل على صحة الطريق وسلامة المنهج هو التزام الكتاب والسنة، فهما الحاكمان على كل قول ورأي وعمل، فما وافق الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة فهو الصواب، وما خالفه فهو الخطأ المردود، وإن كان عليه أكثر الناس.



الأصل الأول

إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة، ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم.

قال ابن العثيمين:

قوله: «إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له...».

الإخلاص لله معناه: «أن يقصد المرء بعبادته التقرب إلى الله تعالى، والتوصل إلى دار كرامته» بأن يكون العبد مخلصًا لله تعالى في قصده، مخلصًا لله تعالى في محبته، مخلصًا لله تعالى في تعظيمه، مخلصًا لله تعالى في ظاهره وباطنه لا يبتغي بعبادته إلا وجه الله تعالى، والوصول إلى دار كرامته، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162، 163]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر: 54]، وقوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 163]، وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الحج: 34]. وقد أرسل الله تعالى جميع الرسل بذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25].

وكما وضح الله ذلك في كتابه كما قال المؤلف -من وجوه شتى- بكلام يفهمه أبلد العامة، فقد وضحه رسول الله ﷺ؛ فقد جاء عليه الصلاة والسلام بتحقيق التوحيد وإخلاصه، وتخليصه من كل شائبة، وسد كل طريق يمكن أن يوصل إلى ثلم هذا التوحيد أو إضعافه، حتى إن رجلًا قال للنبي ﷺ: «**ما شاء الله وشئت**»، فقال النبي ﷺ: «**أجعلتني لله ندًا، بل ما شاء الله وحده**»، فأنكر النبي ﷺ على هذا الرجل أن يقرن مشيئته بمشيئة الله تعالى بحرف يقتضي التسوية بينهما، وجعل ذلك من اتخاذ الندِّ لله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك أيضًا أن النبي ﷺ حرم الحلف بغير الله وجعل ذلك من الشرك بالله، فقال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»؛ وذلك لأن الحلف بغير الله تعظيم للمحلوف به بما لا يستحقه إلا الله عزَّ وجلَّ، وحينما قدم عليه وفد، فقالوا: «**يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا**»، قال: «**يأيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجلَّ**»(1) وقد عقد المصنف -رحمه الله- لذلك بابًا في كتاب التوحيد، فقال: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق المشرك).

وكما بيَّن الله تعالى الإخلاص وأظهره بيَّن ضده، وهو الشرك، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن

(1) أخرجه الإمام أحمد (3/ 241)، وعبد الرزاق في «المصنف» (11/ 272)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (875).

يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: 116]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: 36]، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل: 36]، والآيات في ذلك كثيرة. ويقول النبي ﷺ: **«من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»**(2) رواه مسلم من حديث جابر.

والشرك على نوعين:

النوع الأول: شرك أكبر مخرج عن الملة، وهو: (كل شرك أطلقه الشارع، وهو منافٍ للتوحيد منافاة مطلقة) مثل: أن يصرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله: بأن يصلي لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو ينذر لغير الله، أو أن يدعو غير الله تعالى مثل: أن يدعو صاحب قبر، أو يدعو غائبًا؛ لإنقاذه من أمر لا يقدر عليه إلا الحاضر، وأنواع الشرك معلومة فيما كتبه أهل العلم.

النوع الثاني: الشرك الأصغر، وهو «كل عمل قولي، أو فعلي أطلق عليه الشارع وصف الشرك، لكنه لا ينافي التوحيد منافاة مطلقة» مثل الحلف بغير الله؛ فالحالف بغير الله الذي لا يعتقد أن لغير الله تعالى من العظمة ما يماثل عظمة الله مشرك شركًا أصغر، ومثل الرياء وهو خطير، قال فيه النبي ﷺ: **«أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه؟ فقال: الرياء»**.

وقد يصل الرياء إلى الشرك الأكبر، وقد مثّل ابن القيم -رحمه الله- للشرك الأصغر بيسير الرياء، وهذا يدل على أن كثير الرياء قد يصل إلى الشرك الأكبر، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: 116] يشمل كل شرك ولو كان أصغر، فالواجب الحذر من الشرك مطلقًا؛ فإن عاقبته وخيمة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة: 72].

إذا حرمت الجنة على المشرك لزم أن يكون خالدًا في النار أبدًا، فالمشرك بالله تعالى قد خسر الآخرة لا ريب؛ لأنه في النار خالد، وخسر الدنيا؛ لأنه قامت عليه الحجة وجاءه النذير، ولكنه خسر لم يستفد من الدنيا شيئًا، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الزمر: 15]، فخسر نفسه؛ لأنه لم يستفد منها شيئًا، وأوردها النار وبئس الورد المورود، وخسر أهله؛ لأنهم إن كانوا مؤمنين فهم في الجنة فلا يتمتع بهم، وإن كانوا في النار فكذلك؛ لأنه كلما دخلت أمة لعنت أختها.

واعلم أن الشرك خفي جدًا، وقد خافه خليل الرحمن وإمام الحنفاء، كما حكي الله عنه:

---

(2) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، ومسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات مشرك دخل النار.

﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾[إبراهيم: 35] ، وتأمل قوله: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي ﴾، ولم يقل: «وامنعني»؛ لأن معنى اجنبني، أي: اجعلني في جانب، وعبادة الأصنام في جانب، وهذا أبلغ من امنعني؛ لأنه إذا كان في جانب وهي في جانب، كان أبعد، وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»، وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحذيفة بن اليمان: (أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ مع من سمى من المنافقين؟).

مع أن الرسول ﷺ بشَّره بالجنة، ولكنه خاف أن يكون ذلك لما ظهر لرسول الله ﷺ من أفعاله في حياته، فلا يأمن النفاق إلا منافق، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، فعلى العبد أن يحرص على الإخلاص، وأن يجاهد نفسه عليه. قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص»؛ فالشرك أمره صعب جدًا، ليس بالهين، ولكن الله ييسر الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعل الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله.

قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «إخلاص الدين لله وحده لا شريك له»:

هذا أصل الأصول وقاعدة الدين، وهذا هو المعترك بين الأنبياء وبين الأمم، فالأنبياء يريدون أن يصححوا هذا الأصل الذي خلق الله الخلق من أجله وربط سعادتهم به.

فليس المهم أن الإنسان يصوم ويصلي يكثر من العبادات، المهم الإخلاص، فقليل مع الإخلاص خير من كثير مع عدم الإخلاص، فلو أن الإنسان يصلي الليل والنهار، ويتصدق بالأموال، ويعمل الأعمال لكن بدون إخلاص فلا فائدة في عمله؛ لأنه لا بد من الإخلاص.

والإخلاص معناه: ترك الشرك وإفراد الله جل وعلا بالعبادة، ولا أحد يستحق العبادة مهما بلغ من الكمال ومن الفضل إلا الله، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء والرسل، ولا الأولياء والصالحون، هذا هو الأصل، ولا يتحقق هذا الأصل إلا بترك الشرك، أما من يخلط بين العبادة لله وبين الشرك بغيره، فهذا عمله حابط.

وأما الذي يخلص عمله لله عز وجل فهذا هو السعيد، ولو كان عمله قليلًا، فقليل من العمل مع الإخلاص، فيه الخير، وفيه النجاة؛ وحديث البطاقة لا يخفى: «رجل يبعث يوم القيامة تعرض عليه أعماله مكتوبة في سجلات، كل سجل منها مد البصر، مملوءة بالسيئات، توضع هذه السجلات في كفة، وتوضع هذه البطاقة التي فيها «لا إله إلا الله» قالها هذا الرجل من قلبه بإخلاص ويقين وإيمان؛ فرجحت هذه الكلمة بجميع السجلات، وطاشت بجميع السجلات».

هذا هو الإخلاص فهو ما قالها مجرد لفظ، وإنما قالها عارفًا بمعناها، معتقدًا بما دلت عليه، لكنه مات قبل أن يتمكن من العمل، فكيف بالذي عنده أعمال كثيرة صالحة وخالصة لوجه الله عز وجل.

هذا فيه دلالة على أن الإخلاص وإن كان قليلًا قد ينجي الله به صاحبه، ويكفر عنه جميع الذنوب والسيئات، وأنه إذا فقد الإخلاص فلا فائدة من كثرة الأعمال.

قوله: «وبيان ضده الذي هو الشرك بالله....»:

ضد التوحيد: الشرك بالله عز وجل: فالتوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، والشرك: هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل، كالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة... إلى آخر أنواع العبادات، هذا هو الشرك، والشرك المقصود هنا: هو الشرك في الألوهية، أما الشرك في الربوبية، فهذا غير موجود في الغالب.

فالأمم كلها مقرة بتوحيد الربوبية اضطرارًا، لم يجحده إلا من تظاهر بالإنكار، مع أنه يعترف به في الباطن؛ لأن الإقرار به ضروري، فالجميع يعرف أن هذا الخلق وهذا الكون لا بد له من خالق، وهذا الخلق الذي يسير لا بد له من مدبر، ليس موجودًا بمجرد الصدفة أو موجودًا من نفسه ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: 35، 36]

فالإقرار بتوحيد الربوبية ضروري وفطري لكنه لا يكفي، لم يكف المشركين إقرارهم به كما في القرآن، فالقرآن صريح في هذا ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ [الزخرف: 87]ماذا يجيبون؟ يجيبون: ﴿ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: الله هو الذي خلقنا، هذا توحيد الربوبية، فالمطلوب هو توحيد الألوهية، هذا الذي حصل فيه النزاع والخلاف والخصام بين الرسل والأمم، وبين الدعاة إلى الله وبين الناس، هذا الذي فيه الخصومة، فيه القتال، وفيه ما يتعلق بذلك من الولاء والبراء وغير ذلك.

قوله: «وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة»:

الله –جلا وعلا– يقول: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: 36]هل هذا كلام غامض؟ العوام يفهمونه ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ يفهمون من هذه الأمر بالعبادة والنهي عن الشرك، ولو أنهم لم يتعلموا، يعرفون هذا من لغاتهم، هذه آية واحدة، والقرآن مملوء من مثل هذا.

هذه الآيات يمرون عليها ويقرءونها، لكن لا يفكرون فيها، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: 36]

وهم يقولون: يا علي، يا حسين، يا بدوي، يا تيجاني، يا عبد القادر، يصرخون ويصيحون وينادون بأعلى أصواتهم: يا فلان يا فلان، وفلان هذا ميت!!!

وهذا الذي ينادي الميت ويصرخ ربما أنه يحفظ القرآن بالقراءات السبع أو العشر، ويجوّده

تجويدًا منقطع النظير، «يقيمه إقامة السهم»(3) كما قال النبي ﷺ، لكنه يعتني بحروفه ويضيع حدوده.

يقول الإمام ابن القيم: القرآن كله في التوحيد؛ لأنه إما أمر بعبادة الله وترك الشرك، وإما بيان لجزاء أهل التوحيد، وجزاء أهل الشرك، وإما في أحكام الحلال والحرام، وهذه من حقوق التوحيد، وإما قصص عن الرسل وأممهم وما حصل بينهم من الخصومات، وهذا جزاء التوحيد والشرك.

فالقرآن كله توحيد، من أوله إلى آخره، ومع هذا يقرءون هذا القرآن وهم مقيمون على الشرك الأكبر، ويقولون: لا إله إلا الله، ولا يعملون بها، هم في واد، والقرآن ولا إله إلا الله في واد آخر، إنما هي ألفاظ على اللسان فقط.

لو تسأل واحدًا منهم: ما معنى لا إله إلا الله؟ لقال لك: لا أدري، أنا لم أتعلم.

فنقول له: إذن أنت تقول: لا إله إلا الله ولا تعلم ما معناها، هل هذا يليق بالمسلم؟!

تقول كلامًا لا تعرف معناه ولا تهتم به، أو تقول: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، مثلما يقول المنافق في القبر إذا سئل: يقول: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»(4) مجرد محاكاة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171] شبههم الله بالبهائم التي تسمع صوت الراعي وتسمع الحداء، وتمشي على صوت الراعي وهي لا تفهم معناه.

قوله: «أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين...»:

-إذا قيل لهم: لا تدعوا المخلوقين، ولا تستغيثوا بهم، ادعوا الله واستغيثوا بالله، واسألوا الله، وتوجهوا إلى الله، لا تتوجهوا إلى القبور والأموات.

يقولون: أنت تنتقص الأولياء، هؤلاء الأولياء قدرهم عندنا أن نجلهم ونحترمهم ونهتف بأسمائهم، هذا قدرهم فأنت تنقصهم ولا تعترف بفضلهم، هكذا يقولون لدعاة التوحيد.

فنقول لهم: نحن نحب الصالحين، ونحب أولياء الله، ونواليهم ونجلهم ونحترمهم، ولكن لا نعطيهم شيئًا من حق الرب سبحانه وتعالى ولا نعطيهم شيئًا من العبادة؛ لأنها ليست حقًّا لهم، وهم لا يرضون بهذا ولا يرضون بأنهم يدعون مع الله ويستغاث بهم في الشدائد.

---

(3) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة، برقم (831)، والطبراني (6/ 206)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 540) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي دواد»، برقم (741).

(4) أخرجه البخاري كتاب: الكسوف، باب: صلاة النساء مع الرجال في الكسوف، برقم (1053)، ومسلم، كتاب: الكسوف، باب: ما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، برقم (905)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

قوله: «وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين وأتباعهم»:

هم يقولون: إن استغاثتهم بالصالحين واستنجادهم بهم اعتراف بفضلهم وإجلال لهم، هذا ما زين لهم الشيطان.

والمراد بالشيطان: شيطان الجن، وشيطان الإنس، علماء الضلال شياطين الإنس يتكلمون ويكتبون ويؤلفون في الدعوة إلى الشرك، ويزعمون أن هذا من تعظيم الصالحين، ومن الاعتراف بفضلهم، ومن موالاتهم، وأن عدم دعائهم وعدم الاستغاثة بهم من الجفاء في حقهم، ومن بغضهم إلى آخر ما يقولون، هذا موجود في كتبهم.

قال الشيخ خالد المصلح:

إخلاص الدين لله جل وعلا أصل الأصول:

بدأ المؤلف رحمه الله من هذه الأصول بالأصل الذي هو الأصل الأصيل، وهو توحيد الله جل وعلا، فقال رحمه الله: «الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة، ثم لمَّا صار على أكثر من الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم»

هذا هو الأصل الأول من الأصول الستة وهي أصول مهمة.

فالأصل في هذه الدنيا وفي هذا الوجود هو عبادة الله جل وعلا التي قال عنها الله جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]، والتي جاء الأمر بها في أول الكتاب الحكيم؛ فإن أول أمر في كتاب الله هو الأمر بالتوحيد في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 21]، فأول خطاب في كتاب الله الحكيم وجهه للناس عمومًا هو الأمر بالتوحيد، وهذا يدل على أهمية هذا الأمر وخطورته ووجوب العناية به.

قال رحمه الله تعالى: «إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له».

«إخلاص» أي: تخليص. فهو مصدر بمعنى: تخليص الدين. والدين هو العمل المراد إخلاصه لله تعالى، أي: تخليص العمل. ومعنى تخليصه وإخلاصه: تبرئته من كل لوث وشرك مع الله سبحانه وتعالى، فإخلاص العمل تبرئته من كل نصيب لغير الله جل وعلا، والعمل يشمل العمل القلبي وعمل الجوارح -العمل الظاهر- فيشمل الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، ويشمل الأعمال الواجبة والأعمال المستحبة، فإن الجميع يجب إخلاصه لله سبحانه وتعالى.

وهل هناك دليل في الكتاب يدل على أن الدين يأتي بمعنى العمل؟

الجواب: نعم. وهو قول الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: 3]، وقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: 6] أي: لكم عملكم ولي عملي.

أما قوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: 4] فالدين هنا بمعنى الجزاء والحساب، وليس بمعنى العمل، وعلى هذا لا يكون المعنى: مالك يوم العمل؛ لأن يوم العمل هو هذه الدنيا، أما الآخرة فليست دار عمل، وإنما هي دار حساب وجزاء.

قال رحمه الله تعالى: «إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له».

ألم يكن يكفي أن يقول: «إخلاص الدين لله تعالى» عن قوله: «وحده لا شريك له»؟

الجواب: بلى. لكن قوله: «وحده لا شريك له» تأكيد لمعنى الإخلاص، فـ«وحده» تأكيد لمعنى التوحيد، و«لا شريك له» تأكيد لمعنى نفي الشرك، وأنه لا شريك له سبحانه وتعالى في شيء من أموره، لا شريك له في ملكه، ولا شريك له في خلقه، ولا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له في إلهيته، ولا شريك له في أسمائه وصفاته، ولا شريك له فيما يجب له من العبادة، فيجب إفراد الله عز وجل بكل ما يستحق، فالله جل وعلا ليس كمثله شيء في شيء من شئونه، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11].ر

بيان خطر الشرك

ثم قال رحمه الله تعالى: «وبيان ضده الذي هو الشرك». أي أن الشرك هو ضد التوحيد والإخلاص. والشرك دائر على معنىً واحد، وهو تسوية الله بغيره، سواءٌ أكانت التسوية فيما يتعلق بالخلق والرزق والملك والتدبير، كأن يعتقد العبد أن هناك خالقًا أو رازقًا أو مالكًا أو مدبرًا غير الله جل وعلا، أم كانت تسوية الله عز وجل بغيره فيما يجب له من الأسماء والصفات، كأن يعتقد العبد أن صفات الله كصفات المخلوق، فهذا -أيضًا- من الشرك الذي يجب أن يتخلص منه المؤمن؛ ليكمل توحيده وإيمانه.

وأخطر الشرك وأعظمه الشرك في الإلهية، وهو الشرك في العبادة، ومعناه: أن يجعل العبد مع الله من تُصْرَفُ له العبادة، فيصوم لغير الله، أو يصلي لغير الله، أو ينذر لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو يطوف تعبدًا بقبر، أو يدعو غير الله في دفع المدلهمات، أو كشف الكربات، وما إلى ذلك مما يكون من كثير من الناس، وكل هذا من الشرك الذي جاءت الشريعة بالنهي عنه والتحذير منه.

القرآن يدعو كله إلى التوحيد

وقد بين القرآن هذين الأمرين -التوحيد والشرك- غاية البيان. ولذلك قال رحمه الله: «وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل»، ولا إشكال أن أكثر القرآن هو في تقرير هذا الأصل

الذي هو وجوب إفراد الله بالعبادة، والنهي عن الشرك بجميع صوره، والقرآن كله توحيد، فهو يدعو في جانب الدعوة إلى التوحيد، إلى إخلاص العمل لله عز وجل، ويبين فضائل ومصالح التوحيد، ويبين عاقبة أهل التوحيد. أما في جانب النهي عن الشرك فإن الله نهى عنه وحذر منه، وبين أنه ظلم عظيم، وبين الله جل وعلا سوء عاقبة الشرك على أهله في الدنيا قبل الآخرة.

وبين عاقبة المشركين وأنهم في نار تلظى؛ لعظم ما جاءوا به واقترفوه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: 48]، فالله لا يغفر الشرك بالكلية، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء، وما هذا الامتناع من الرحيم الرحمن البَرِّ الرءوف إلَّا لعظم الجرم؛ فإن الشرك ظلم عظيم كما وصفه رب العالمين، فالقرآن كله بيان للتوحيد وفضله وفضل عاقبته وعاقبة أهله، وبيان للشرك وسوء عاقبته وسوء حال أهله في الدنيا قبل الآخرة، ولذلك كان بيان التوحيد في القرآن واضحًا لكل أحد.

ولذلك قال رحمه الله تعالى: «وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى» يعني: ليس من وجهٍ واحد، وليس -فقط- بالأمر بالتوحيد، أو بالنهي عن الشرك، بل بينه من جميع الوجوه، سواءٌ أكان أمرًا بالتوحيد، أم نهيًا عن الشرك، أم بيانًا لمحاسن التوحيد، أم بيانًا لمساوئ الشرك، أم بيانًا لعاقبة أهل التوحيد، أم بيانًا لعاقبة أهل الشرك.

قال: «بكلام يفهمه أبلد العامة» يعني: لا يحتاج إلى فهم، ولا إلى قوة بلاغة، ولا إلى عظيم إدراك حتى يصل إلى فهم هذه المعاني، بل هي ظاهرة لكل أحد، فمثلًا قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 1] هذه الآية يدرك معناها كل أحدٍ من الناس، وأنه عز وجل أحد فيما يجب له سبحانه وتعالى من الربوبية والإلهية والأسماء والصفات.

حيل الشيطان في إيقاع الإنسان في الشرك

قال رحمه الله: «ثم لما صار على أكثر من الأمة ما صار» يعني من ترك الصراط المستقيم، والانحراف عن الهدي المستقيم هدي النبي ﷺ «أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم»، وهذا هو دأب الشيطان -أعاذنا الله وإياكم منه- فإنه يأتي للمؤمن ويظهر له الطاعة بثوبٍ قبيح تنفر منه النفس وتزهد فيه، وتنصرف عنه، ويأتي إلى البدعة والمعصية فيكسوها أجمل الحلل، ويبهرجها ويزخرفها بأحسن الزخارف، حتى يقبل عليها من ضعف إيمانه ولم يرسخ يقينه، وأما أهل الإيمان والبصائر فإنهم لا تغريهم هذه المظاهر، بل ينظرون إلى الأمور بالبصيرة التي يمنّ الله سبحانه وتعالى بها على المتقين، فيفرقون بين الحق والباطل، ولا تختلط عندهم هذه الأمور، بل هي عندهم في غاية الظهور، فالشيطان يظهر الشرك

بمظهر محبة الصالحين، ويظهر الداعين إلى التوحيد بأنهم لا يحبون الصالحين ولا يعظمونهم حق تعظيمهم، فإذا جئت إلى رجلٍ وقلت له: يا أخي! لا تتوجه إلى القبر في الدعاء، وتوجه إلى القبلة، واسأل ربك الذي يملك خزائن السموات والأرض جلّ وعلا، ولا تسأل هذا المقبور الذي لا يملك لنفسه حولًا ولا طوْلًا.. قال: أنت لا تعرف قدر الصالحين، ولا تقدر أولياء الله.

وهذا في الحقيقة من جهله، وأنه لم يقدر الله حق قدره، ولو قدر الله حق قدره ما توجه إلى مقبور بين التراب، ولتوجه إلى رب الأرباب، لكن لضعف يقينه وقلة بصيرته انطلت عليه هذه الصورة، وجعل تعظيم أهل القبور والصالحين بالانحناء لهم والركوع أو السجود، وغير ذلك مما يفعله أهل الشرك، وكل هذا مما يخالف هدي النبي ﷺ، ومما يوقع في الشرك، والواجب على المؤمن أن يبعد نفسه عن كل ما خالف هدي النبي ﷺ، وأن يعلم أن خير الهدي هدي النبي ﷺ، وإذا وقع المؤمن في شيء من هذا فإن الشيطان سيزيِّنه له، لكن إن راجع المؤمن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي السلف الصالح سلم من هذه الشبه.

وليعلم أنه لا أحد أعظم اتباعًا للكتاب والسنة من رجل جعل الله عز وجل قصده ومعبوده، ولم يصرف إلى غيره نوعًا من العبادة، فليحذر المؤمن من الشيطان، فإنه يأتي إلى هؤلاء ويزين لهم الشرك، ويقول لهم: هذا ليس شركًا، إنما هذا من إجلال الصالحين ومن تعظيمهم.

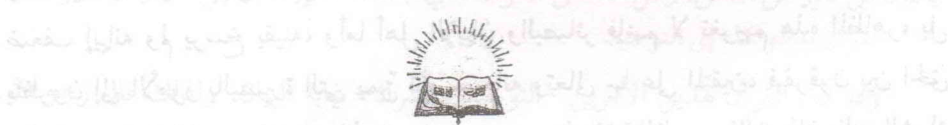
وحتى ينفِّرهم من دعوة التوحيد يقول: هؤلاء إنما يدعون إلى تنقص الصالحين والوقيعة فيهم، ولا يعظمونهم ولا يقدرونهم حق قدرهم.

وهذه شبهة ضعيفة لا تنطلي إلّا على ضعاف العقول.

ولذلك قال المؤلف رحمه الله تعالى: «أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم»

والصحيح أنها غلو في الصالحين، ومجاوزة للحد، وإلّا فالمؤمن لا يقع في هذا ولا يقرب منه، بل لا يعظم إلّا ما عظمه الله ورسوله.

ثم إن محبة الصالحين عبادة، لكن لا يجوز أن يتجاوز المؤمن في هذه العبادة حدها حتى يقع في الشرك، هذا هو الأصل الأول الذي ذكره المؤلف رحمه الله في هذه الأصول الستة.



الأصل الثاني

أمر الله بالاجتماع في الدين، ونهى عن التفرق فيه، فيبين الله هذا بيانًا شافيًا تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين، ونهاهم عن التفرق فيه، ويزيده وضوحًا ما وردت به السُّنَّة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون.

قال ابن العثيمين:

قوله: «أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه .. إلخ».

الأصل الثاني من الأصول التي ساقها الشيخ -رحمه الله تعالى- الاجتماع في الدين والنهي عن التفرق فيه، وهذا الأصل العظيم قد دل عليه كتاب الله تعالى، وسُنَّة رسوله ﷺ، وعمل الصحابة -رضي الله عنهم- والسلف الصالح رحمهم الله تعالى:

أما كتاب الله تعالى فقد قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: 102، 103].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران: 105]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: 46]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾ [الأنعام: 159]، وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: 13].

ففي هذه الآيات نهى الله تعالى عن التفرق وبين عواقبه الوخيمة على الفرد والمجتمع والأمة بأسرها.

وأما دلالة السُّنَّة على هذا الأصل العظيم: فقد قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا -ويشير إلى صدره- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله. وفي رواية: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»، ويقول عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»(5). وقال عليه الصلاة

(5) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

والسلام لأبي أيوب رضي الله عنه: **«ألا أدلك على تجارة؟»** قال: بلى يا رسول الله. قال: **«تسعى في الإصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا»**[6].

وفي مقابلة أمر النبي ﷺ المؤمنين بالتحاب، والتآلف، ومحبة الخير، والتعاون على البر والتقوى، وفعل الأسباب التي تقوي ذلك، وتنميه، في مقابلة ذلك نهى النبي ﷺ عن كل ما يوجب تفرق المسلمين وتباعدهم؛ وذلك لما في التفرق والبغضاء من المفاسد العظيمة؛ فالتفرق هو قرة عين شياطين الجن والإنس؛ لأن شياطين الإنس والجن لا يودون من أهل الإسلام أن يجتمعوا على شيء؛ فهم يريدون أن يتفرقوا؛ لأنهم يعلمون أن التفرق تفتت للقوة التي تحصل بالالتزام، والاتجاه إلى الله عزَّ وجلَّ.

فالنبي ﷺ حث على التآلف، والتحاب بقوله وفعله، ونهى عن التفرق والاختلاف الذي يؤدي إلى تفريق الكلمة، وذهاب الريح.

وأما عمل الصحابة: فقد وقع بينهم -رضي الله عنهم- الاختلاف، ولكن لم يحصل به التفرق، ولا العداوة، ولا البغضاء، فقد حصل الخلاف بينهم في عهد رسول الله ﷺ، ورسول الله بين أظهرهم، فمن ذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من غزوة الأحزاب، وجاءه جبريل يأمره أن يخرج إلى بني قريظة لنقضهم العهد، قال النبي ﷺ: **«لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»**[7] فنقول: سمعنا، وأطعنا.

ومنهم من قال: نصلي في الوقت؛ لأن رسول الله ﷺ أراد بذلك المبادرة والإسراع إلى الخروج، ولم يرد تأخير الصلاة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فلم يعنف أحدًا منهم، ولم يوبخه على ما فهم، وهم بأنفسهم -رضي الله عنهم- لم يتفرقوا من أجل اختلاف الرأي في فهم حديث رسول الله ﷺ.

أما عمل السلف الصالح: فإن من أصول السُّنَّة والجماعة في المسائل الخلافية أن ما كان الخلاف فيه صادرًا عن اجتهاد، وكان مما يسوغ فيه الاجتهاد فإن بعضهم يعذر بعضًا بالخلاف، ولا يحمل بعضهم على بعض حقدًا، ولا عداوة، ولا بغضاء، بل يعتقدون أنهم إخوة حتى وإن حصل بينهم هذا الخلاف، حتى إن الواحد منهم ليصلي خلف من يرى أنه ليس على وضوء، ويرى الإمام أنه على وضوء، مثل أن يصلي خلف شخص أكل لحم إبل، وهذا الإمام يرى أنه لا

(6) الهيثمي، في المجمع (8/ 80).

(7) أخرجه البخاري، كتاب الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماء، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة والسير بالغزو.

ينقض الوضوء، والمأموم يرى أنه ينقض الوضوء فيرى أن الصلاة خلف ذلك الإمام صحيحة، وإن كان هو لو صلاها بنفسه لرأى أن صلاته غير صحيحة.

كل هذا لأنهم يرون أن الخلاف الناشئ عن اجتهاد فيما يسوغ فيه الاجتهاد ليس في الحقيقة بخلاف؛ لأن كل واحد من المختلفين قد تبع ما يجب الحقيقة بخلاف؛ لأن كل واحد من المختلفين قد تبع ما يجب عليه اتباعه من الدليل الذي لا يجوز له العدول عنه، فهم يرون أن أخاهم إذا خالفهم في عمل ما اتباعًا للدليل هو في الحقيقة قد وافقهم؛ لأنهم يدعون إلى اتباع الدليل أينما كان، فإذا خالفهم موافقة لدليل عنده فهو في الحقيقة قد وافقهم؛ لأنه تمشى على ما يدعون إليه، ويهدون إليه من تحكيم كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

أما ما لا يسوغ فيه الخلاف فهو ما كان مخالفًا لما كان عليه الصحابة والتابعون، كمسائل العقائد التي ضل فيها من ضل من الناس، ولم يحصل فيها الخلاف إلا بعد القرون المفضلة، أي: لم ينتشر الخلاف إلا بعد القرون المفضلة، وإن كان بعض الخلاف فيها موجودًا في عهد الصحابة، ولكن ليعلم أننا إذا قلنا: قرن الصحابة ليس المعنى أنه لا بد أن يموت كل الصحابة، بل القرن ما وجد فيه معظم أهله قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن القرن يحكم بانقضائه إذا انقرض أكثر أهله».

فالقرون المفضلة انقرضت، ولم يوجد فيها هذا الخلاف الذي انتشر بعدهم في العقائد، فمن خالف ما كان عليه الصحابة والتابعون - فإنه عليه، ولا يقبل خلافه.

أما المسائل التي وجد فيها الخلاف في عهد الصحابة، وكان فيها مساغ للاجتهاد، فلا بد من أن يكون الخلاف فيها باقيًا قال النبي ﷺ: **«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»**(8) فهذا هو الضابط.

فالواجب على المسلمين جميعًا أن يكون أمة واحدة، وأن لا يحصل بينه تفرق وتحزب بحيث يتناحرون فيما بينهم بأسنة الألسن، ويتعادون، ويتباغضون من أجل اختلاف يسوغ فيه الاجتهاد - فإنهم وإن اختلفوا فيما يختلفون فيه فيما تقتضيه النصوص حسب أفهامهم، فإن هذا أمر فيه سعة ولله الحمد، والمهم ائتلاف القلوب واتحاد الكلمة، ولا ريب أن أعداء المسلمين يحبونه من المسلمين أن يتفرقوا سواء كانوا أعداء يصرحون بالعداوة، أو أعداء يتظاهرون بالولاية للمسلمين، أو للإسلام وهم ليسوا كذلك.

(8) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.

قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «أمر الله بالاجتماع في الدين، ونهى عن التفرق فيه»:

– هذا الأصل موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران 103] ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [آل عمران: 105] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: 159] ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: 13].

فلا يجوز للمسلمين أن يتفرقوا في دينهم، بل يجب أن يكونوا أمة واحدة على التوحيد ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92].

لا يجوز لأمة محمد أن تتفرق في عقيدتها، وفي عبادتها، وفي أحكام دينها، هذا يقول: حلال، وهذا يقول: حرام بغير دليل، لا يجوز هذا.

لا شك أن الاختلاف من طبيعة البشر، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: 118- 119].

لكن الاختلاف يحسم بالرجوع إلى الكتاب والسنة، فإذا اختلفت أنا وأنت فإنه يجب علينا أن نرجع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [النساء: 59].

أما ما يقال: كل يبقى على مذهبه، وكل يبقى على عقيدته، والناس أحرار في آرائهم، ويطالبون بحرية العقيدة، وحرية الكلمة، هذا هو الباطل الذي نهى الله عنه فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: 103].

فيجب أن نجتمع في عرض اختلافنا على كتاب الله حتى في مسائل الفقه، إذا اختلفنا في شيء نعرضه على الأدلة، فمن شهد له الدليل صرنا معه، ومن أخطأ الدليل، فإننا لا نأخذ بالخطأ.

إن الله جل وعلا لم يتركنا نختلف ونتفرق بدون أن يضع لنا ميزانًا بين الصحيح من الخطأ، بل وضع لنا القرآن والسنة ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعني: القرآن ﴿ وَٱلرَّسُولِ ﴾ يعني: السنة: والرسول ﷺ يقول: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي»(9).

(9) أخرجه الحاكم (1/ 172)، والدارقطني (4/ 245)، من حديث أبي هريرة، وقال الألباني في «منزلة السنة في الإسلام»: رواه مالك بلاغًا والحاكم موصلًا بإسناد حسن.

فكأن الرسول ﷺ موجود بيننا بوجود السنة مدونة ومصححة وموضحة، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة، أنه لم يتركها في متاهة، بل تركها وعندها ما يدلها على الله سبحانه وتعالى ويدلها على الصواب، أما الذي لا يريد الحق، ويريد أن كل واحد يبقى على مذهبه وعلى نحلته.

ويقول: نجتمع فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه. هذا لا شك أنه كلام باطل.

فالواجب أن نجتمع على كتاب الله وسنة رسوله، وما اختلفنا فيه نرده إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا يعذر بعضنا بعضًا ونبقى على الاختلاف، بل نرده إلى كتاب الله وسنة رسوله، وما وافق الحق أخذنا به، وما وافق الخطأ نرجع عنه، هذا هو الواجب علينا، فلا تبقى الأمة مختلفة، وربما يذكر الذين يدعون إلى البقاء على الاختلاف حديث: «اختلاف أمتي رحمة»[10] وهذا الحديث يروى ولكنه ليس صحيحًا.

الاختلاف ليس رحمة، الاختلاف عذاب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: 105] فالاختلاف يشتت القلوب ويفرق الأمة، ولا يمكن للناس إذا صاروا مختلفين أن يتناصروا ويتعاونوا أبدًا، بل يكون بينهم عداوة وعصبية لفرقهم وأحزابهم، ولا يتعاونون أبدًا.

إنما يتعاونون إذا اجتمعوا واعتصموا بحبل الله جميعًا، وهذا هو الذي أوصى به النبي ﷺ فقال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوا ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»[11] هذه الثلاث يرضاه الله لنا.

والشاهد منها قوله: «وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا» وليس معنى هذا أنه لا يوجد اختلاف ولا يوجد تفرق.

طبيعة البشر وجود الاختلاف، ولكن معنى هذا أنه إذا حصل اختلاف أو تفرق يحسم بالرجوع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وينتهي النزاع وينتهي الاختلاف، هذا هو الحق.

وليس تحكيم القرآن أو تحكيم السنة مقتصرًا على مسألة النزاع في الخصومات بين الناس في الأموال، حيث يسمون الحكم بما أنزل الله، أنه الحكم بين الناس في أموالهم ونزاعاتهم في أمور الدنيا فقط.

---

(10) قال الألباني: موضوع، انظر «ضعيف الجامع» رقم (230).

(11) أخرجه أحمد (2/ 367)، وابن حبان (8/ 182/ إحسان)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (6/ 25)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا؛ بل هو الحكم بينهم في كل اختلاف وكل نزاع، والنزاع في العقيدة أشد من النزاع في الأموال، والنزاع في أمور العبادات وأمور الحلال والحرام أشد من النزاع في الخصومات في الأموال، إنما الخصومات في الأموال جزء أو جزئية من الاختلاف الذي يجب حسمه بكتاب الله عز وجل، والصحابة رضي الله عنهم كان يحصل بينهم اختلاف لكن سرعان ما يرجعون على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فينتهي اختلافهم.

فقد حصل بينهم اختلاف بعد وفاة النبي ﷺ حول من الذي يتولى الأمر من بعده؟ وسرعان ما حسموا النزاع ورجعوا وولوا أبا بكر الصديق، وانقادوا له وأطاعوا له، وزال الاختلاف، وانحسمت الفرقة التي حصلت فيمن يتولى الأمر بعد الرسول ﷺ، فهم يحصل بينهم اختلافات لكن يرجعون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم يذهب الاختلاف فيما بينهم.

وإن الرجوع على كتاب الله يزيل الأحقاد ويزيل الأضغان، فلا أحد يعترض على كتاب الله عز وجل فإنك عندما تقول لإنسان: تعال إلى قول الإمام الفلاني أو العالم الفلاني، لا يقتنع.

لكن لو قلت له: تعال إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ، فإن كان فيه إيمان فهو يقتنع ويرجع.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 51] هذا قول المؤمنين؛ أما المنافقون إن كان الحق لهم جاءوا مذعنين، وإن كان الحق عليهم تولوا وأعرضوا كما ذكر الله عنهم.

فلا يسع المؤمنين أن يبقوا على اختلافهم في جميع الاختلافات، لا في الأصول ولا في الفروع، كلها تحسم بالكتاب والسنة، وإذا لم يتبين الدليل مع أحد المجتهدين، وصار لا مرجح لقول أحدهم على الآخر، ففي هذه الحالة لا ينكر من أخذ بقول إمام معين، ومن ثم قال العلماء، «لا إنكار في مسائل الاجتهاد»؛ أي: المسائل التي لم يظهر الدليل فيها مع أحد الطرفين.

قوله: «ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا»:

لما بقوا على اختلافهم، هلكوا وتناحروا فيما بينهم وتقاتلوا، هذا شأن أهل الاختلاف، أما شأن أهل الاجتماع فهو القوة وزوال الحقد من قلوبهم.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65]

ولا يُرضي الناس ولا يُنهي النزاع إلا الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

قوله: «وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرق فيه...»:

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[الشورى: 13]؛ أي: لا يصير كل واحد له دين؛ لأن الدين واحد ليس فيه تفرق.

قوله: «ويزيده وضوحًا ما وردت به السنة...»:

نعم، ثبت عن الرسول ﷺ من الأحاديث ما يحث على الاجتماع وينهى عن التفرق والاختلاف.

مثل حديث: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث[12].

قوله: «ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه...»:

صار الأمر مع الأسف عند المتأخرين: أن الاختلاف في الأصول والفروع هو الفقه، مع أن الواجب العكس: أن الاجتماع هو الفقه في دين الله.

هم يقولون: إن التفرق وإعطاء الحرية للناس وعدم الحجر عليهم هذا هو الفقه. ونحن نقول: الفقه هو: الاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وبعضهم يقول: هذا من سعة الإسلام أنه إذا حرم علينا أحد شيئًا نجد من يفتي بحله، اتخذوا الناس هم المشرعين، فعلى رأي هؤلاء إذا قال فلان: هذا حلال، صار حلالًا لنا ولو كان حرامًا في كتاب الله وسنة رسوله.

فنقول: نرجع إلى كتاب الله، فمن شهد له بالحق أخذنا به، ومن شهد عليه بالخطأ تركناه، هذا هو الواجب.

قوله: «وصار الاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون»:

الذي يأمر بالاجتماع وترك الخلاف يقولون عنه: هذا خارج على الأمة، هذا زنديق؛ لأنه يلغي أقوال العلماء، إنما نعرضها على كتاب الله، نحن لم نكلف باتباع الناس، إنما أمرنا باتباع القرآن والسنة، هذا هو الحق، ما أمرنا باتباع فلان وفلان، والله تعالى لم يكلنا إلى آرائنا واجتهاداتنا، بل أنزل علينا كتابه وأرسل إلينا رسوله، وإذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ زال الشقاق وزال الاختلاف واجتمعت الكلمة.

---

(12) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة برقم (4607) واللفظ له، والترمذي كتاب العلم، باب: الأخذ بالسنة واجتناب البدع برقم (2676)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (2735).

أتدرون أنه إلى عهد قريب كان في المسجد الحرام أربعة محاريب، كل أصحاب مذهب يصلون جماعة وحدهم مع أهل مذهبهم بجوار الكعبة، حتى قيض الله من جمعهم على إمام واحد وزال -ولله الحمد- هذا المظهر السيئ.

هذا كله من اتباع المذاهب واتباع الآراء. حتى الصلاة فرقوها، وصار الحنفي لا يصلي وراء الحنبلي، والحنبلي لا يصلي وراء الشافعي، ولا يصلون في وقت واحد، هذا يصلي في أول الوقت وهذا في آخره؛ لأن فلانًا يرى تأخير الصلاة، وفلانًا يرى تقديمها، يريدون أن يرضوا جميع الناس. وهذا وجدناه في بعض البلاد الأخرى باقيًا إلى الآن، حتى الجمعة لا يصلونها في وقت واحد، بعضهم لا يصليها إلا عند العصر؛ لأن فلانًا قال كذا وكذا، وإذا أراد أحدهم أن يصلي مبكرًا ذهب يصلي مع فلان، وإذا أراد أحدهم أن يتأخر صلى مع فلان، ولكن عندنا -ولله الحمد- في هذه البلاد في ظل هذه الدعوة المباركة عادوا في المسجد الحرام إلى ما كان عليه السلف الصالح يصلون جميعًا في وقت واحد وخلف إمام واحد.

قال الشيخ خالد المصلح:

إن قوة الأمة لا تكون إلا في وحدتها واجتماعها، ولهذا لما تفرقت الأمة شذر مذر تسلط عليها أعداؤها وساموها سوء العذاب، فإذا أرادت الأمة أن يعود لها مجدها وعزتها وقوتها فعليها بالاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعليها أن تنبذ التفرق والاختلاف.

الاجتماع في الدين ونبذ الفرقة من الأصول التي جاء بها الإسلام

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين، ونهى عن التفرق فيه، فبين الله هذا بيانًا شافيًا تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرق فيه، ويزيده وضوحًا ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون».

يقول الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الأصل الثاني» أي: من الأصول التي دل عليها القرآن، وجاءت بها السنة على وجه الاستفاضة، قال: «أمر الله بالاجتماع في الدين، ونهى عن التفرق فيه» الاجتماع في الدين لا يمكن ولا يتحقق إلّا بالاعتصام بالكتاب الحكيم والأخذ بسنة خاتم النبيين ﷺ، والسير على صراط الصحابة والتابعين من خير القرون، هذه الأمور الثلاثة بها يحصل الاجتماع في الدين، ومن غيرها لا يمكن أن يحصل اجتماع، بل غيرها هو الفرقة التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها، وحذر منها رسوله ﷺ.

وقد أمر الله عز وجل بالاجتماع في الدين في آياتٍ كثيرة، كما أنه نهى عن الفرقة في آياتٍ كثيرة، فمن الأمر بالاجتماع في الدين قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[الشورى: 13] فهذا هو الذي شرعه الله عز وجل لهذه الأمة، كما أنه أمر به من تقدم من الرسل، وأمره للرسل أمر للأمم، فإن الله عز وجل أمر الرسل وأمر أممهم بإقامة الدين فقال: ﴿ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾، وإقامة الدين لا تتحقق إلّا بالأخذ بالكتاب الحكيم وسنة سيد المرسلين ﷺ، فالواجب على الأمة إذا أرادت الاجتماع أن تنبذ ما عدا هذين الوحيين: كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وكذلك ما أجمع عليه السلف؛ لأن ما أجمع عليه سلف الأمة لا بد أن يكون له دليل من الكتاب أو السنة، وقد قال الله جل وعلا في بيان ذلك: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: 103]، وحبله هو شرعه الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ.

فالأمر بالاجتماع ليس مجرد الاتفاق على أي وجهٍ كان، كما يدعو إليه بعض من قل نصيبه من العلم، فيقول: الواجب على الأمة أن تجتمع مذاهبها على اختلافها، وعلى تناحرها، فهذا هو الواجب على الأمة في نظره، ونحن نقول: هذا هو الواجب، لكن مع أمرك بالاجتماع لا بد أن تبين طريق الاجتماع، وهو ما بينه الله في كتابه، أما أن تطلق الدعوة إلى الاجتماع دون بيان الطريق الموصل للاجتماع فهذا لا يحقق المقصود؛ لأن الله لما أمر بالاجتماع لم يأمر به مطلقًا، بل أمر به أمرًا واضحًا مقيدًا فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ وقال جلّ وعلا: ﴿ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[الشورى: 13]، وإقامته لا تكون إلا بأخذه من مصادره الأصيلة: الكتاب والسنة. فالأمر بالاجتماع والنهي عن التفرق مما دل عليه الكتاب والسنة دلالةً واضحة، ولذلك قال المؤلف رحمه الله: «فبين الله هذا بيانًا شافيًا تفهمه العوام» يعني: لا يختلط، ولا يحتاج إلى عميق نظر وكبير تأمل حتى يتوصل الإنسان لهذه النتيجة، بل هي واضحة بينة لكل من أحسن قراءة أو سَمْع القرآن، فإن الله سبحانه وتعالى أمر بذلك أمرًا واحدًا. وأما النهي عن الفرقة فإنه كثير، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ ﴾[آل عمران: 105]

ثم قال رحمه الله: «ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا».

نهانا كما ذكرنا في الآية: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ ﴾ وقوله جلّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾[الأنعام: 159]، والآيات التي تحذر من التفرق في الدين كثيرة جدًا.

أسباب الاختلاف في الدين

واعلم أن التفرق في الدين له أسبابٌ كثيرة، لكن الذي يجمع هذه الأسباب على اختلافها وتنوعها هو الإعراض عن الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح، فبقدر ما يحصل عند الناس من الإعراض عن هذه الأمور يحصل بينهم من الفرقة والاختلاف بقدر إعراضهم؛ لأن الناس إذا أعرضوا عن الكتاب والسنة يرجعون إلى أهوائهم، وإلى آرائهم وأذواقهم، وإلى ما يشتهون ويحبون.

وهل هذا مما يتفق فيه الناس؟

الجواب: إن هذا مما يختلف فيه الناس اختلافًا عظيمًا، فاختلاف الناس في آرائهم وأقوالهم وعقولهم وما يحبون أشد وأعظم من اختلافهم في ألوانهم وأجناسهم وألسنتهم، ولو أردنا أن نحصي ما يتكلم به الناس من اللغات فهل نستطيع إحصاءها؟

الجواب: إننا لا نستطيع؛ لأنها كثيرة متنوعة، حتى اللغة الواحدة يتفرع عنها لغات عديدة، فاختلاف الناس في آرائهم وعقولهم أشد من اختلافهم في لغاتهم، وأشد من اختلافهم في ألسنتهم، وأشد من اختلافهم في ألوانهم، ولذلك فالمرجع الذي يجتمع عليه الناس ولا يختلفون فيه -ولا عليه- هو الكتاب والسنة، ولذلك فمن دعا إليهما فهو الداعي إلى الاجتماع، ومن دعا إلى غيرهما فهو الداعي إلى الفرقة.

فعرفنا الجامع لأسباب الفرقة، والجامع لأسباب الاجتماع، فأعظم أسباب الفرقة هو البغي، والبغي: هو مجاوزة الحد ويقابله العلم؛ فإن العلم من أعظم أسباب الاجتماع؛ لأنه كلما كثر علم الإنسان ورسخ كان داعيًا إلى الاجتماع ونبذ الفرقة.

ومن البغي الذي يسبب الفرقة والاختلاف الحسد والكبر، والحسد: هو كراهة ما أنعم الله به على الغير ولو لم يتمنَّ زواله.

فكل من كره ما أنعم الله به على غيره في دينٍ أو دنيا فهو حاسد، سواء تمنى أن تزول النعمة أم لم يتمنَّ ذلك، وانتبه إلى هذا؛ لأن بعض الناس يظن أن الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير.

وهذا تعريف قاصر للحسد، بل الحسد: هو أن يكره الإنسان ما منَّ الله به على غيره من النعم الدينية أو النعم الدنيوية.

والكبر أيضًا هو سبب من أسباب الفرقة والاختلاف؛ لأن الكبر يحمل الإنسان على رد الحق، فالمتكبر يأنف ويستعلي أن يأخذ الحق من غيره، ويقول: أنا آخذ الحق من هذا! فما الذي تميز به عليَّ؟ أنا أحسن منه في كذا. إما في مالٍ، أو في جاه، أو في منصب، أو في نسب، أو في لون، ويرد الحق بسبب كبره، فتقع الفرقة.

افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة

قال: «وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في دينهم، ونهاهم عن التفرّق فيه، ويزيده وضوحًا » أي: هذا الأصل «ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك» .

والعجب العجاب أن الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، كما قال النبي ﷺ : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة».

ولذلك يجب على المؤمن أن يحرص على أن يكون من هذه الواحدة التي بشرها رسول الله ﷺ بالنجاة، وصفتها جاءت في سنة رسول الله ﷺ ؛ فإنه ﷺ في رواية الترمذي لما سئل عن الفرقة الناجية قال: «هم من كان على ما أنا عليه وأصحابي»، وفي رواية أخرى قال: «هي الجماعة»، والجماعة هم المجتمعون على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

انقلاب الموازين عند كثير من الناس

قال رحمه الله تعالى: «ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه من العلم والفقه في الدين» . أصول الدين مسائل الاعتقاد، وفروعه مسائل الفقه، وهذا لا إشكال فيه، فقد أصبح الأمر على خلاف ما أمر الله به، فأصبح الناس يدعون إلى فرقٍ وإلى مذاهب شتى، ويدعون أن الدعوة إلى هذه الفرق وإلى هذه المذاهب وإلى هذه الأحزاب هي الموصلة إلى ما دعت إليه الرسل، والرسل لم تدعُ إلى مذهب معين، إنما دعت إلى عبادة رب العالمين، ودعت إلى صراط الله المستقيم، وإلى كلمة سواء، وهي أن يخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، وأن يطيعوا الله عز وجل فيما أمر، وأن يتركوا ما عنه نهى وزجر.

ثم قال رحمه الله تعالى: «وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون» أي: أن من يأمر الناس بالإقبال على الكتاب والسنة ونبذ الأقوال المخالفة لهما مهما كانت مصادرها، سواء أكانت في الاعتقاد أم في الفقه- يصفونه بالزندقة، أو بالجنون، والزنديق في كلام السلف هو المنافق، فقوله: «إلَّا زنديق» أي: إلَّا منافق، «أو مجنون» ، أي: فاقد العقل، والزنديق هو فاسد الدين، والمجنون: هو فاقد العقل، فيصفونه بأحد هذين الوصفين، وهو نظير ما وصف به الجاهلون رسول الله ﷺ ، والأمر كما قال الله جل وعلا: ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: 53] أي أن هذه المقولة سببها الطغيان والخروج عن الصراط المستقيم. إذن، الواجب على كل مؤمنٍ أن يسعى إلى الاجتماع، وأن يأمر به، وأن يحث عليه، لكن ما هو الاجتماع الذي دعت النصوص إلى الأخذ به؟ الجواب: هو الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: 103] ، والحبل في هذه الآية هو شرع الله المتين الذي جاء به رسول الله ﷺ .

الأصل الثالث

إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمَّر علينا ولو كان عبداً حبشيًا ، فبيَّن الله هذا بيانًا شائعًا كافيًا بوجوه من أنواع البيان شرعًا وقدرًا، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم، فكيف العمل به.

قال ابن العثيمين:

قوله: «إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة .. إلخ».

ذكر المؤلف -رحمه الله تعالى- أن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لولاة الأمر بامتثال ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه ولو كان من تأمَّر علينا عبدًا حبشيًا.

قوله: «فبيَّن الله هذا بيانًا شائعًا كافيًا ... إلخ».

أما بيانه شرعًا: ففي كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ: فمن بيانه في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: 59]. الآية، وقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: 46] وقوله: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: 103].

ومن بيانه في سُنَّة رسول الله ﷺ: ما ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثره علينا، وأن لا تنازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان**»[13]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**من رأى من أميره شيئًا فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات فميتته جاهلية**»[14]، وقال ﷺ: «**من خلع يدًا من الطاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له**»[15]، وقال: «**اسمعوا وأطيعوا وإن أُمِّر عليكم عبد حبشي**»[16].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[17] متفق عليه. وقال عبد الله بن عمر رضي الله

(13) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي عليه الصلاة والسلام: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها»، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير المعصية.

(14) البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي عليه الصلاة والسلام: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها»، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

(15) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

(16) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.

(17) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

عنهما: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فنزلنا منزلًا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنه ما من نبي بعثه الله إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتن يرقق بعضها بعضًا، تجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، وتجيء الفتنة فيقول: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاءه آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»(18) رواه مسلم.

وأما بيانه قدرًا: فإنه لا يخفي حال الأمة الإسلامية حين كانت متمسكة بدينها، مجتمعة عليه، معظمة لولاة أمورها، منقادة لهم بالمعروف، كانت لها السيادة والظهور في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[النور: 55]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: 40، 41]

ولما أحدثت الأمة الإسلامية ما أحدثت وفرقوا دينهم، وتمردوا على أئمتهم، وخرجوا عليهم وكانوا شيعًا - نزعت المهابة من قلوب أعدائهم، وتنازعوا ففشلوا وذهب ريحهم، وتداعت عليهم الأمم وصاروا غثاء كغثاء السيل.

وصار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم والغيرة على دين الله وترك العمل به، ورأى كل فرد من أفراد الرعية نفسه أميرًا، أو بمنزلة الأمير المنابذ للأمير. فالواجب علينا جميعًا -رعاة ورعية- أن نقوم بما أوجب الله علينا من التحاب والتعاون على البر والتقوى، والاجتماع على المصالح؛ لنكون من الفائزين، وعلينا أن نجتمع على الحق ونتعاون عليه، وأن نخلص في جميع أعمالنا، وأن نسعى لهدف واحد هو إصلاح هذه الأمة إصلاحًا دينيًّا ودنيويًّا بقدر ما يمكن، ولن يمكن ذلك حتى تتفق كلمتنا، ونترك المنازعات بيننا، والمعارضات التي لا تحقق هدفًا، بل ربما تفوت مقصودًا، وتعدم موجودًا.

إن الكلمة إذا تفرقت، والرعية إذا تمردت - دخلت الأهواء والضغائن، وصار كل واحد يسعى لتنفيذ كلمته وإن تبين أن الحق والعدل في خلافها، وخرجنا عن توجيهات الله تعالى حيث

(18) مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول.

يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[آل عمران: 103] .

فإذا عرف كل واحد ما له وما عليه، وقام به على وفق الحكمة – فإن الأمور العامة الخاصة تسير على أحسن نظام وأكمله.

قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة...»:

الأصل الثالث: طاعة ولي الأمر المسلم؛ لأنه لا يتم هذا الاجتماع إلا بطاعة ولي الأمر، فلا اجتماع إلا بإمام، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة، فولي الأمر المسلم جعله الله رحمة للمسلمين لإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المظلوم من الظالم، وحفظ الأمن.

هذا من رحمة الله عز وجل، والصحابة لما توفي الرسول ﷺ لم يدفنوه حتى بايعوا إمامهم؛ لأنهم يخشون من الاختلاف ومن الفتنة؛ لأنهم يعرفون أنه لا يصلح أن يعيشوا ولا ليلة واحدة بدون إمام؛ لأن هذا من ضروريات الدين.

ولا يمكن أن يكون هذا بالسمع والطاعة لولي الأمر، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[النساء: 59] بعد طاعة الله وطاعة رسوله لا بد من طاعة أولي الأمر، وقوله: ﴿ مِنكُمۡ ﴾؛ أي: من المسلمين، دل على أنه يشترط في ولي الأمر أن يكون مسلمًا.

قوله: «فبين الله هذا بيانًا شائعًا [كافيًا] »:

حيث قال ﷺ: **«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليك بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»**[19].

هذا الأصل الثالث: السمع والطاعة: **«اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد»**[20] فلا يمكن أن تحصل جماعة للمسلمين إلا بولي أمر مسلم ولو لم يكن ذا نسب عربي بل لو كان مملوكًا.

قوله: «ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم...»:

صار هذا الأصل لا يعرف عند كثير ممن يدعي العلم، فيجهلون مسألة السمع والطاعة وما لها من فضل وما لها من أهمية، فكيف بالعوام وهم أشد جهلًا في هذا؟

---

(19) سبق تخريجه.
(20) سبق تخريجه.

فصار الشجاع –الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر عندهم والذي لا تأخذه في الله لومة لائم، عندهم– هو الذي يخرج على إمام المسلمين، ويخلع يد الطاعة، وينادي بالثورة على الحكام المسلمين بمجرد حصول خطأ منهم، أو معصية لا تصل إلى حد الكفر.

وصار حديث المجالس والندوات والمحاضرات في تتبع عثرات الولاة وتفخيمها والنفخ فيها، حتى يئول الأمر إلى تفرق الكلمة، وتنفير الرعية من طاعة ولي الأمر حتى يختل الأمن وتسفك الدماء، ويئول الأمر إلى فساد أشد من الفساد الذي يحصل من الصبر على طاعة ولي الأمر الفاسق والظالم الذي عندهم لم يصدر منه كفر بواح عندهم عليه من الله سلطان.

قال الشيخ خالد المصلح:

لا يصلح الناس إلا بقائد يقودهم ويسوسهم حتى تستقيم أحوالهم وتصلح أمورهم، والناس بغير قائد تضطرب أمورهم، ويقعون في هرج ومرج واختلاف، ولهذا كان من الأصول التي جاء بها الإسلام السمع والطاعة لولي الأمر وإن كان ظالمًا، ما لم يصدر منه الكفر صريحًا.

السمع والطاعة لولي الأمر من أصول الإسلام

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الأصل الثالث: أن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبدًا حبشيًا».

فبين الله له هذا بيانًا شائعًا كافيًا بوجوه من أنواع البيان شرعًا وقدرًا، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به؟!».

وهذا الأصل هو تابع للأصل الذي قبله؛ ولذلك قال المؤلف رحمه الله تعالى: «إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبدًا حبشيًا»، يعني: إن مما أمر الله به السمع والطاعة لمن تأمر علينا، أي: لمن ولي أمرنا.

والسمع: هو القبول، والطاعة: هي الانقياد والامتثال، وهما مقرونان في كثير من المواضع، قال الله جل وعلا في كتابه في آخر سورة البقرة: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[البقرة: 285] وقال النبي ﷺ: «لا تقولوا سمعنا وعصينا، وقولوا: سمعنا وأطعنا».

فالسماع المراد به القبول، والطاعة المراد بها الامتثال والعمل، فالواجب على الأمة لتحقيق الاجتماع أن تسمع وأن تطيع لمن ولي أمرها.

ولذلك قال رحمه الله تعالى: «لمن تأمر علينا، ولو كان عبدًا حبشيًا»، وهذا هو الذي أمر به النبي ﷺ أصحابه، ووعظهم به، وأمر به الأمة أن تسمع وأن تطيع، ولو تأمر عليهم من يحتقرونه، ولذلك قال: «ولو كان عبدًا حبشيًا»، لاسيما في ذلك الوقت الذي كان مثل هذا في غاية الدنو عند أهل ذلك العصر؛ لأن العبد الحبشي في ذلك الوقت كان الغالب أنه يُستعبد، وأنه

يُؤمر، لا أن يترأس ويأمر، فلما أمرهم النبي ﷺ بهذا دل على أنه يجب عليهم أن يمتثلوا أمر من ولاه الله أمرهم، وأن يكون حالهم مع أمرائهم ومن ولّاهم الله عليهم أن يكونوا بين سمعٍ وطاعة، فيسمعون ويطيعون.

وقوله: «ولو كان عبدًا حبشيًا» هذا من حيث اللون والجنس، أي: الأصل.

أما من حيث حال من تولى فهل يلزم أن يكون على طاعةٍ وبر؟

الجواب: لا يلزم، ولذلك قال النبي ﷺ في الصحيح: «من رأى من أميره ما يكره فليصبر عليه»، سواء فيما يتعلق به، أو فيما يتعلق بغيره؛ أمر النبي ﷺ بأن يصبر عليه، ثم بعد هذا الأمر جاء الوعيد فقال: «من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية» أي: مات على غير الطريقة السلفية، وعلى غير الطريقة النبوية، وهذا مما يتعلق بحال الأمير من حيث الاستقامة، ولذلك كان من عقيدة أهل السنة والجماعة السمع والطاعة لولاة الأمر، ومن عقيدتهم الجهاد والصلاة والحج خلف الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا، وبهذا تستقيم أحوال الناس، بل لا استقامة لأحوال الناس إلَّا بهذا، فإذا كره الإنسان من أميره شيئًا فالواجب عليه أن يصبر، ولذلك لما أخبر النبي ﷺ الصحابة بأنه ستكون بعده أثرة سألوه: فما الواجب؟ قال: «أدوا الحق الذي عليكم، واسألوا الله الذي لكم»، وهذا معناه أن يصبروا.

ثم قال المؤلف رحمه الله تعالى في بيان هذا الأصل: «فبين الله له هذا بيانًا شائعًا كافيًا بوجوهٍ من أنواع البيان شرعًا وقدرًا»، فمن الشرع قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: 59]، وقول النبي ﷺ: «على المسلم السمع والطاعة في منشطه ومكرهه وفي عسره ويسره»، والأحاديث والأدلة في هذا كثيرة، وأما قوله: «وقدرًا» فالمراد به: بين الله هذا قدرًا.

فما من فئة خالفت هذا الأمر إلا دب فيها الخلاف، ووقعت في الفرقة والنزاع والقتال، وأكبر شاهد على هذا ما وقع في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه، فعندما خرجوا عليه وقع السيف في الأمة، ووقع القتال والخلاف المعروف المشهور، وهذه هي الحال في كل من سعى في مخالفة ما أمر به النبي ﷺ من الاجتماع على من ولاه الله أمر الأمة.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم، فكيف العمل به» وهذا واقع، ولذلك تجد أن كثيرًا ممن يخالف طريق أهل السنة والجماعة لا يذكرون هذا الأصل، فليس من أصولهم السمع والطاعة لولاة الأمر، بل من أصولهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعني الخروج على الأئمة ومنابذتهم ومقاتلتهم، وهذا مشهور عند الخوارج والمعتزلة وغيرهم من الفرق الضالة.

الأصل الرابع

بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم، وقد بيَّن الله هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ [البقرة: 40] إلى قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: 47]، ويزيده وضوحًا ما صرحت به السُّنَّة في هذا الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه - لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم.

قال ابن العثيمين:

قوله: «بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء ...إلخ».

المراد بالعلم هنا العلم الشرعي، وهو: علم ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى، والعلم الذي فيه المدح والثناء هو علم الشرع.

علم ما أنزله الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: 9]، وقال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[21]، وقال النبي ﷺ: «إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[22]، ومن المعلوم أن الذي ورثه الأنبياء إنما هو علم الشريعة، ومع هذا فنحن لا ننكر أن يكون للعلوم الأخرى فائدة، ولكنها فائدة ذات حدين: إن أعانت على طاعة الله وعلى نصر دين الله، وانتفع بها عباد الله كانت خيرًا ومصلحة، وقد ذكر بعض أهل العلم أن تعلم الصناعات فرض كفاية، وهذا محل نظر ونزاع.

وعلى كل حال فالعلم الذي الثناء فيه، وعلى طالبيه هو - فقه كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وما عدا ذلك فإن كان وسيلة إلى خير فهو خير، وإن كان وسيلة إلى شر فهو شر، وإن لم يكن وسيلة لهذا وهذا فهو ضياع وقت ولغو.

والعلم له فضائل كثيرة:

منها: أن الله يرفع أهل العلم في الآخرة وفي الدنيا، أما في الآخرة فإن الله يرفعهم درجات

---

(21) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا، ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة.

(22) أخرجه الإمام أحمد (5/ 196)، وأبو داود (3641) والترمذي (2681) وابن ماجه (223) والدارمي (338) والبغوي في « شرح السنة» (1/ 275) برقم (129)، والهيثمي في «موارد الظمآن» (80) قال الحافظ في «الفتح» (1/ 160) «وله شواهد يتقوى بها».

بحسب، ما قاموا به من الدعوة إلى الله والعمل بما علموا، وفي الدنيا يرفعهم الله بين عباده بحسب ما قاموا به، قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: 11].

ومنها: أنه إرث النبي ﷺ كما قال النبي ﷺ: **«إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**[23].

ومنها: أنه مما يبقى للإنسان بعد مماته؛ فقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح»**[24].

ومنها: أن الرسول ﷺ لم يرغب أحدًا أن يغبط أحدًا على شيء من النعم إلا على نعمتين هما:

1- طلب العلم والعمل به.

2- الغني الذي جعل ماله خدمة للإسلام، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»**[25].

ومنها: أن العلم نور يستضيء به العبد، فيعرف كيف يعبد ربه، وكيف يعامل غيره، فتكون مسيرته في ذلك على علم وبصيرة.

ومنها: أن العالم نور يهتدي به الناس في أمور دينهم ودنياهم، ولا يخفى على كثير من الناس قصة الرجل الذي من بني إسرائيل قتل تسعًا وتسعين نفسًا، فسأل رجلًا عابدًا هل له من توبة، فكأن العابد استعظم الأمر، فقال: «لا»، فقتله السائل، فأتم به المئة، ثم ذهب إلى عالم فسأله، فأخبره أن له توبة، وأنه لا شيء يحول بينه وبين التوبة، ثم دله على بلد أهله صالحون؛ ليخرج إليه، فخرج فأتاه الموت في أثناء الطريق، والقصة مشهورة، فانظر الفرق بين العالم والجاهل.

إذا تبين ذلك فلابد من معرفة من هم العلماء حقًا، هم الربانيون الذين يربون الناس على شريعة ربهم؛ حتى يتميز هؤلاء الربانيون عمن تشبه بهم وليس منهم، يتشبه بهم في المظهر والمنظر والمقال والفعال، لكنه ليس منهم في النصيحة للخلق وإرادة الحق، فخيار ما عنده أن يلبس الحق بالباطل ويصوغه بعبارات مزخرفة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل هو البدع

---

(23) تقدَّم.

(24) أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

(25) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، ومسلم، كتاب المسافرين من كتاب الصلاة، باب من يقوم بالقرآن ويعلمه.

والضلالات الذي يظنه بعض الناس هو العلم والفقه، وأن ما سواه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون.

هذا معنى كلام المؤلف -رحمه الله- وكأنه يشير إلى أئمة أهل البدع المضلين الذين يلمزون أهل السُّنَّة بما هم بريئون منه؛ ليصدوا الناس عن الأخذ منهم، وهذا إرث الذين طغوا من قبلهم، وكذبوا الرسل، كما قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: 52]. قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 53].

قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «بيان العلم والعلماء...»:

هذا أصل عظيم: وهو بيان المراد بالعلم، وهو أن العلم هو العلم الشرعي المبني على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هذا هو العلم النافع، أما علوم الدنيا من الحرف والصناعات والطب وغير ذلك، هذه لا يطلق عليها العلم بدون قيد. فإن قيل: العلم، والذي فيه الفضل، فإن المراد به العلم الشرعي، أما علم الحرف والصناعات والمهن فهذه علوم مباحة ولا يطلق عليها اسم العلم بدون قيد.

إنما يقال: علم الهندسة، وعلم الطب، لكن للأسف أصبح الآن في عرف الناس إذا قيل: العلم، فإنه يراد به العلم الحديث، ويقولون إذا سمعوا شيئًا من القرآن: هذا يشهد له العلم الحديث، وإذا جاء حديث قالوا: هذا يشهد له العلم.

صار العلم الآن يطلق على علم الحرف والصناعات والطب وغير ذلك، مع أنه قد يكون جهلًا؛ لأنه قد يعتريه شيء من الخطأ الكثير؛ لأنه مجهود بشري، خلاف العلم الشرعي فإنه من الله، فهو ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 42].

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: 28] وهم علماء الشرع الذين يعرفون الله عز وجل، أما علماء الهندسة والصناعة والاختراع والطب، فهؤلاء قد يكونون يجهلون حق الله -جلا وعلا- ولا يعرفون الله، وإن عرفوه فمعرفتهم قاصرة، لكن الذين يعرفون الله هم علماء الشرع، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ لأنهم يعرفون الله بأسمائه وصفاته، ويعرفون حقه سبحانه وتعالى، وهذا لا يحصل بعلم الطب وعلم الهندسة، وإنما قد يحصل به توحيد الربوبية فقط، أما توحيد الألوهية فهذا إنما يحصل بعلم الشرع.

قوله: «وبيان من تشبه بهم وليس منهم»:

المقصود بيان من تشبه بأهل العلم وليس هو من أهل العلم، إنما يحاكي أهل العلم ويتشبه بهم وهو لا يملك رصيدًا من العلم، وهذا ضرره عظيم على نفسه وعلى الأمة؛ لأنه يقول على الله

بغير علم، ويضل الناس بغير علم، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[الأنعام: 144] وقد قيل: «يفسد الدنيا أربعة: نصف فقيه، ونصف نحوي، ونصف طبيب، ونصف متكلم، هذا يفسد البلدان، وهذا يفسد اللسان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد الأديان»

قوله: «وقد بين الله هذا الأصل...»:

الله -جلا وعلا- في سورة البقرة أنزل آيات كثيرة في بني إسرائيل لتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وأمرهم باتباع محمد ﷺ الذي يعرفون نبوته ورسالته في كتبهم، وبشر به أنبياؤهم، بدأها من قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾[البقرة: 40] وختمها بقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: 47] ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾[البقرة: 123] ثم ذكر إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾[البقرة: 124]

كل هذه الآيات ما بين الآية الأولى والآية الأخيرة، آيات كثيرة كلها في بني إسرائيل لتذكيرهم بنعمة الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأن الواجب عليهم أن يؤمنوا برسول الله محمد ﷺ.

وبنو إسرائيل هم أولاد يعقوب، فإسرائيل هو يعقوب؛ لأنهم من ذريته وهم اثنا عشر سبطًا، كل ابن من أبنائه صار له ذرية، وكل ذرية يسمون السبط، بمثابة القبائل في العرب، قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾[الأعراف: 160].

قوله: «ويزيده وضوحًا ما صرحت به السنة....».

نعم جاءت الأحاديث التي فيها من الحث على تعلم العلم والترغيب فيه، وبيان ما هو العلم النافع وما هو العلم الذي لا ينفع -الشيء الكثير، وإذا راجعت كتاب «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر أو غيره، عرفت هذا.

قوله: «وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات»:

صار العلم والفقه عند بعض المتأخرين هو البدع والضلالات؛ لأنهم تركوا العلم الصحيح المبني على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وصار العلم عندهم: قال فلان وقال فلان، وحكايات.

كقولهم: إن القبر الفلاني ينفع من كذا، وإن البقعة الفلانية رأى فيها فلان في المنام كذا، هذا علم هؤلاء، أو يبحثون عن الأحاديث الموضوعة والمقبورة التي قبرها أهل العلم، وبينوا أنها مكذوبة، فتجد المخرفين يجعلونها صحيحة ويزينون لها أسانيد، ويرممونها ويقولون: هذه

أحاديث صحيحة، ويتركون الأحاديث الصحيحة الواردة في البخاري ومسلم والسنن الأربع والمسانيد المعتبرة، يتركونها؛ لأنها ليست في صالحهم.

قوله: «وخير ما عندهم لبس الحق بالباطل...»:

يجب أن يميز الحق من الباطل ويفصل بينهما، أما إذا خلط بينهما فهذا هو التلبيس والغش والتدليس على الناس.

قوله: «وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون»:

لأنه يخالف ما هم عليه، فالعلم الذي أثنى الله عليه وعلى أهله ومدحه صار عندهم جهلًا، ومن تفوه به -أي: تكلم به- فهو مجنون؛ لأنهم يقولون: إن العلم الذي فرضه الله يغير ما عليه الناس!! ويغير دين آبائنا وأجدادنا!!

قوله: «وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه...»:

من صنف في التحذير من العلم النافع، ومدح العلم المذموم ونشره في الناس يقولون عنه: هذا هو الفقيه، هذا هو العالم، أما من نشر العلم الصحيح يقولون عنه: هذا لا يصلح، وهذا جاهل، وهذا يريد أن يفرق الناس، إنا نريد التجميع لا نريد التفريق؛ أي: التجميع ولو على الباطل، وتمييز الطيب من الخبيث، وهذا محال، فإنه لا يحصل الاجتماع على الباطل، إنما يحصل الاجتماع على الحق، والشاعر يقول:

إذا ما الجرح رم على فساد ... تبين فيه إهمال الطبيب

قال الشيخ خالد المصلح:

أول أمر أُمر به النبي ﷺ هو الأمر بالقراءة، وما ذاك إلا لبيان أن هذا الدين مبني على العلم، وقد جاءت الشريعة ببيان فضل العلم وبيان صفات حملته، حتى لا يختلط الأمر وينعكس، فيؤخذ العلم عن غير أهله.

بيان العلم وصفات أهله مما جاءت به الشريعة الإسلامية

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم، وقد بين الله تعالى في هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 122] الآية، ويزيده وضوحًا ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه

هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبّس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم».

هذا هو الأصل الرابع في هذه الرسالة المباركة، وهذا الأصل ملخصه أن الشريعة جاءت ببيان العلم النافع وصفات حَمَلَتِه، وبينت صفات أهله بيانًا واضحًا لا لبس فيه ولا شك، ولا شبهة فيه ولا ريب، فلا يلتبس الحق بالباطل، ولا يلتبس العلم بالجهل، ولا يلتبس الفقه بغيره لمن قرأ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال رحمه الله تعالى: «الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء».

«العلم» هو موضوع هذا الأصل، «والعلماء» هم: حملة هذا العلم، «والفقه» أي أن هذا الأصل مخصوص ببيان حقيقة الفقه ومن هم الفقهاء.

وليس مراد المؤلف رحمه الله بالفقه هنا معناه في الاصطلاح الخاص الذي هو معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، بل المراد بالفقه هنا إدراك الشريعة وفهمها، وهو المقصود بقول النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»، فليس المراد بذلك معرفة الأحكام الشرعية التفصيلية فقط.

قال رحمه الله تعالى: «وبيان من تشبه بهم وليس منهم».

قوله: «تشبه بهم» أي: بالعلماء والفقهاء، «وليس منهم» أي: وحاله في الحقيقة أنه ليس منهم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى بين صفات العلماء الربانيين، وبين من تشبه بهم في أخذه العلم، لكن لم يكن هذا العلم قد آتى ثماره، وحصّل به حامله مقصوده؛ لأن العلم يحمله من الناس صنفان: عامل به، فذاك الموفق المحصِّل للمقصود، ومهمل له، وذاك الخاسر المحروم؛ لأن من تعلم العلم ولم يعمل به فهو حجة عليه، كما قال النبي ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك»، حجة لمن أخذ به وقرأه وعمل به، وهو حجة على من قرأه وأعرض عنه، وكذلك حجة على من أعرض ابتداءً فلم يقرأ أو يعمل، فكلاهما يدخل في كون القرآن حجة عليه، لكن من أخذ بالقرآن وأعرض عنه فإنه أعظم جرمًا ممن لم يأخذه من الأصل، والسبب أن من أخذ القرآن فقد أبصر، وصار عنده آلة الاهتداء ومعرفة سلوك الطريق المستقيم، بخلاف الذي أعرض عنه بالكلية؛ فإنه لم ينلْ البصيرة، ولم يحمل النور.

ولذلك كان الذم الشديد الذي ورد في القرآن هو لمن أخذ القرآن وأعرض عنه، فأسوأ مثلين ذكرهما الله عز وجل في كتابه هما فيمن أخذ العلم ولم يعمل به، قال الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ

ﵟءَايَٰتِنَاﵞ أي: البينات الواضحات، ﵟفَٱنسَلَخَ مِنۡهَاﵞ كما يسلخ الجلد من الشاة.

أي: لم يبقَ معه شيء منها.

كما أنك إذا سلخت الشاة لا يبقى شيء من جلدها عليها، فكذلك الواقع في هذا الذي منّ الله عليه بالعلم ولم ينتفع به، ﵟفَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِﵞ [الأعراف: 175، 176]، وهذا فيه بيان أن الضلال والانحراف كان منه، مأخوذ من قوله: ﵟفَٱنسَلَخَ مِنۡهَاﵞ، ومن قوله: ﵟأَخۡلَدَﵞ.

ﵟفَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَﵞ أي: أعانه على هذا الشيطان -نعوذ بالله-.

قال تعالى: ﵟوَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثﵞ [الأعراف: 176] أي أنه في عناءٍ دائم ولهثٍ غير منقطع عند قيام سببه، وعند عدم قيام سببه؛ وذلك أنه أعرض عن النور والهدى بعد البصر، وهو من أشد ما يكون على القلب أن يعرض الإنسان بعد البصيرة.

والمثل الثاني في سورة الجمعة؛ حيث قال سبحانه وتعالى: ﵟمَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَﵞ [الجمعة: 5] فجعل إعراضهم عن مقتضى ما حملوه من العلم تكذيبًا، ومقتضى ذلك أنهم كذَّبوا بما حُمِّلوا من العلم؛ لأنهم لو كانوا صادقين مصدِّقين لهذا العلم لعملوا به، فلا يمكن لإنسانٍ يصدق ويعتقد ما يحمله من العلم أن يتخلى ويعرض عنه.

وهذا في الإعراض الكلي، أما كون الإنسان يخالف ما علمه في بعض الأحيان بداعي الهوى أو الشهوة فهذا يقع، ولكنه لا يستمر على الإعراض، ولا يستمر على الانسلاخ، بل يعود ويستعتب ويستغفر ويرجع.

والمهم أن كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ بينا العلم النافع، وبينا أهله بيانًا واضحًا شافيًا، وميَّزا ذلك عما يلتبس بها من مدعو العلم الذين هم في الحقيقة دعاة على أبواب جهنم يدعون الناس إلى النار بأفعالهم، بل في بعض الأحيان بآرائهم وأقوالهم؛ حيث إنهم يحرِّفون الكلم عن مواضعه، ويسوِّغون للناس الشرّ والضلال، وبينا من تشبه بهم وليس منهم، وقد بين الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة في قوله تعالى: ﵟيَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡﵞ [البقرة: 40] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﵟيَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡﵞ [البقرة: 122]؛ فإن الله عز وجل قص في هذه السورة نبأ اليهود، وما كان منهم من تكذيبٍ وإعراض، وما قابلوا به الدعوة، فذكّرهم جل وعلا بعظيم ما أنعم به

عليهم من العلم والهدى والاصطفاء وغير ذلك، وبين ما كانوا عليه، وكيف قابلوا تلك النعم، فكانت حجةً عليهم لا حجةً لهم.

نصوص الوحي واضحة

ثم قال رحمه الله تعالى: «ويزيده وضوحًا ما صرحت به السنة في هذا، من الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات»

قوله: «ويزيده وضوحًا» أي: يزيد هذا الأصل وضوحًا وبيانًا «ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد» أي: الذي ضعف إدراكه وقلّ ذكاؤه «ثم صار هذا أغربَ شيءٍ» يعني: أغرب الأشياء «وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات»، وهذا من الانحراف الكبير، فإن العلم واضح، وهو العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح، وما عداه فهو جهل، بخلاف الحال في كثيرٍ من الأحيان، حيث يعد تشقيق الكلام بما لا يدل عليه الكتاب والسنة وتفريعه بما يحصل به قسوة القلب هو العلم، وإذا ذكَّرهم الإنسان بقول الله أو بقول رسوله ﷺ قالوا: هذه ظاهرية، وهذا جمود على النصوص، وهذا كذا وكذا وخلعوا عليه من الألقاب والأوصاف ما يزهِّد الناس في الإقبال على الكتاب والسنة، وما يجرِّئُهم على الوقوع في البدعة والدعوة إلى الضلالة، وهذا منعطف خطير، ومسلك يجب على المؤمن أن يحذر منه؛ فإنه لا يحصل كمال الإيمان ولا تمام الانقياد للنبي ﷺ إلَّا بالتسليم بالنصوص، فبقدر ما مع الإنسان من تعظيم الوحيين والعمل بهما يكون حظه ونصيبه من العلم والعمل به.

ومن المهم لنا نحن -طلبةَ العلم ومن يشتغل بطلب العلم- أن نعرف ونتلمس صفاتِ العلم النافع، ولذلك ينبغي علينا أن نجمع صفات العلم النافع من خلال الكتاب والسنة وكلام السلف؛ لأن في ذلك من الإشارات إلى العلم النافع ما ينبغي لنا أن نقف عليه، حتى نعرف ما الذي ينفع فنأخذه ونُقبِل عليه، وما الذي لا يدخل في إطار العلم النافع فنشتغل بغيره عنه؛ لأن العلم كثير.

تخبط من أعرض عن الكتاب والسنة

ثم قال رحمه الله تعالى: «وصار العلم والفقه هو: البدع والضلالات، وخيار ما عندهم: لبس الحق بالباطل» وهذا هو شأن كل من أعرض عن الكتاب والسنة؛ فإنه في لبسٍ وخلط وتخبط وتناقضٍ واضطراب.

قال: «وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه- لا يتفوه به إلَّا زنديقٌ أو مجنون».

يعني: في نظر الناس، كما تقدم ذلك.

فالناس يصفون من تكلم بالعلم من الكتاب والسنة بهذين الوصفين، ولكن هذا -ولله الحمد- ليس هو الغالب، لا سيما في زماننا هذا، بل من تكلم بالحقِّ والهدى فمهما وصف به من الأوصاف المقذعة القبيحة فإن الله تعالى يدافع عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: 128].

بيان الحال في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

ثم قال رحمه الله تعالى: «وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم».

ولا يخفى أن الشيخ رحمه الله عاش في عصرٍ أصبح المتكلم بالكتاب والسنة والداعي إلى نبذ الشرك والبدعة غريبًا بين الناس، بل يُتهم بما ذكره رحمه الله من الزندقة والجنون والخروج عن سنن العلماء وطريقة أهل العلم، وصار الذي يؤلف في تقرير ما عليه عامة الناس من البدع والشرك وتعظيم غير الله هو العالم الجهبذ الإمام المتبع.

فالشيخ رحمه الله تكلم عن زمانه، وقد فتح الله عز وجل خيرًا كثيرًا بعد ذلك ببركة دعوته ومن تلاه من أئمة الدعوة وأهل العلم في كل عصرٍ ومصر؛ أعني أهل العلم المتبعين للكتاب والسنة من أهل السنة والجماعة السائرين على طريق السلف الصالح، فبدعوتهم أصبح القول بالكتاب والسنة هو الحجة والبرهان، وهو الذي تطمئن إليه النفوس.

ومن نعمة الله أن الدعوة السلفية تكتسح الدعوات اكتساحًا بالغًا واضحًا، وهذا من نعمة الله عز وجل على هذه الأمة، وهو تصديق قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم، وأن يحشرنا في زمرتهم.



الأصل الخامس

بيان الله -سبحانه- لأولياء الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية من سورة آل عمران، وهي قوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: 31] الآية، وآية في سورة المائدة، وهي قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: 54] الآية، وآية في يونس، وهي قوله: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: 62]، ثم صار الأمر عند الله أكثر من يدعى العلم، وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل ومن تبعهم فليس منهم ولا بد من ترك الجهاد فليس منهم، ولا بد من ترك الإيمان والتقوى، فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم، يا ربنا نسألك العفو والعافية، إنك سميع الدعاء.

قال ابن العثيمين:

قوله: «بيان الله سبحانه لأولياء الله ... إلخ»

أولياء الله تعالى هم الذين آمنوا به واتقوه واستقاموا على دينه، وهم من وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ فليس كل من يدعي الولاية يكون وليًّا، وإلا لكان كل واحد يدعيها، ولكن يوزن هذا المدعي للولاية بعمله، إن كان عمله الإيمان والتقوى فإنه ولي، وإلا فليس بولي، وفي دعواه الولاية تزكية لنفسه، وذلك ينافي تقوى الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: 32].

فإذا أدعى أنه من أولياء الله فقد زكَّى نفسه، وحينئذ يكون واقعًا في معصية الله، وفيما نهاه الله عنه، وهذا ينافي التقوى؛ فأولياء الله لا يزكون أنفسهم بمثل هذه الشهادة، وإنما هم يؤمنون بالله ويتقونه، ويقومون بطاعته -سبحانه وتعالى- على الوجه الأكمل، ولا يغرون الناس ويخدعونهم بهذه الدعوى؛ حتى يضلوهم عن سبيل الله تعالى. فهؤلاء الذين يدعون أنفسه أحيانًا أسيادًا، وأحيانًا أولياء لو تأمل الإنسان ما هم عليه لوجدهم أبعد ما يكونون عن الولاية والسيادة، فنصيحتي لإخواني المسلمين أن لا يغتروا بمدعي الولاية حتى يقيسوا حاله بما جاء في النصوص في أوصاف الأولياء، وقد أشار الشيخ رحمه الله تعالى إلى علامة محبة الله وولايته بما ساقه من الآيات:

الآية الأولى: قوله تعالى في آل عمران: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: 31]، وهذه الآية تسمى آية المحنة، أي: الامتحان؛ حيث ادعى قوم محبة الله تعالى، فأنزل الله هذه الآية، فمن ادعى محبة الله تعالى نظرنا في عمله: فإن كان متبعًا لرسول الله ﷺ فهو صادق، وإلا فهو كاذب.

الآية الثانية: قوله تعالى في المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

[المائدة: 54] الآيتين، فوصفهم بأوصاف هي علامة المحبة وثمراتها:

الوصف الأول: أنهم أذلة على المؤمنين فلا يحاربونهم، ولا يقفون ضدهم، ولا ينابذونهم.

الوصف الثاني: أنهم أعزة على الكافرين، أي: أقوياء عليهم، غالبون لهم.

الوصف الثالث: أنهم يجاهدون في سبيل الله، أي: يبذلون الجهد في قتال أعداء الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

الوصف الرابع: أنهم لا يخافون في الله لومة لائم، أي: إذا لامهم أحد على ما قاموا به من دين الله لم يخافوا لومته، ولم يمنعهم ذلك من القيام بدين الله عزَّ وجلَّ.

الآية الثالثة: قوله تعالى في يونس: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس: 62] فبيَّن الله تعالى أن أولياء الله تعالى هم الذين اتصفوا بهذين الوصفين: الإيمان، والتقوى؛ فالإيمان بالقلب، والتقوى بالجوارح، فمن ادعى الولاية ولم يتصف بهذين الوصفين فهو كاذب.

ثم إن الشيخ -رحمه الله- بيَّن أن الأمر صار على العكس عند أكثر من يدعي العلم، وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع؛ فالولي عنده من لا يتبع الرسل، ولا يجاهد في سبيل الله، ولا يؤمن به، ولا يتقيه.

ويحسن بنا أن ننقل هنا ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في رسالته: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»[26]. ونسوق ما تيسر منها:

قال رحمه الله: وقد بيَّن سبحانه وتعالى في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ أن لله أولياء من الناس، وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [يونس: 62-64]. وذكر أولياء الشيطان، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: 98-100].

فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرق الله ورسوله بينهما؛ فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، وهم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، ومنعوا من يحب أن يمنع فلا يكون وليًّا لله إلا من آمن به وبما جاء به، واتبعه باطنًا وظاهرًا، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه، أي: الرسول فليس من أولياء الله، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: 31]

(26) مجموع الفتاوى (1/ 156).

فالناس متفاضلون في ولاية الله عزَّ وجلَّ بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق. وأولياء الله على طبقتين: سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز: في أول سورة الواقعة وآخرها، وفي الإنسان، والمطففين، وفي سورة فاطر، والجنة درجات متفاضلة تفاضلًا عظيمًا، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم.

فمن لم يتقرب إلى الله: لا يفعل الحسنات، ولا يترك السيئات - لم يكن من أولياء الله؛ فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله لا سيما أن تكون محجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف ... فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليًا لله، وإن لم يعلم منه ما ينقض ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله؟ ﷺ باطنًا وظاهرًا، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقًا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام .. .، فعلى هذا فمن أظهر الولاية، وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم، بل قد يأتي بما يناقض ذلك لم يكن لأحد أن يقول: هذا ولي الله .. .، وليس لأولياء الله شيء يتميزون به من الأمور المباحات ...

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ...ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله؛ لئلا يكون نبيًا .. .، بل يجب أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله، وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم: أموافق هو أم مخالف؟ توقف فيه.

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف طرفان ووسط:

فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه وسلم إليه جميع ما يفعله.

ومنهم من إذا رآه قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهدًا مخطئًا.

وخيار الأمور أوساطها: هو أن لا يجعل معصومًا ولا مأثومًا إذا كان مجتهدًا مخطئًا، فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده، والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله ... وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم؛ فالأنبياء -صلوات الله عليه وسلامه- يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله -عزَّ وجلَّ- وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف

الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسُّنَّة فما وافق الكتاب والسُّنَّة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسُّنَّة كان مردودًا، وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدًا معذورًا فيما قاله، له أجر على اجتهاده، لكنه إذا خالف الكتاب والسُّنَّة كان مخطئًا، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع.

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة هو مما اتفق عليه أولياء الله -عزَّ وجلَّ- ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم، بل إما أن يكون كافرًا، وإما أن يكون مفرطًا في الجهل.

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع، فيظن في شخص أنه ولي الله، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسُّنَّة فيوافق ذلك له، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده، والمفلحين، وعباده الصالحين، ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولًا إلى البدعة والضلال، وآخرًا إلى الكفر والنفاق.

وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاده كونه وليًّا لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة .. .، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ، وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان صاحبها وليًّا لله؛ فقد يكون عدوًّا لله؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسُّنَّة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة.

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم «أربع مراتب»، فقال الله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾

[النساء: 69]

وهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين، أو لحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ؛ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ ....، ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها لضعف الإيمان، أو المحتاج أتاه منها ما يقوى إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية الله منه مستغنيًا عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك؛ لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدى الخلق، ولحاجتهم - فهؤلاء أعظم درجة.

والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام:

قسم يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صدق به مجملًا، وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس؛ لكونه عنده ليس من الأولياء.

ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان وليًا لله، وكلا الأمرين خطأ.. .، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين، وأنهم من أولياء الله، وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة، والصواب القول الثالث وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عزَّ وجلَّ.

وفيما نقل كفاية إن شاء الله تعالى، ومن أراد المزيد فليرجع إلى الأصل، والله الموفق.

قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم.....»:

نعم، هذا أصل عظيم، وهو التفريق بين أولياء الله وأولياء الشيطان؛ لأن أهل الباطل صاروا يسمون أولياء الشيطان أولياء الله، حتى إن هذا الأمر التبس على الناس؛ ولذلك صنف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابًا نافعًا مفيدًا سماه: **«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»** قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] ثم بينهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 63].

هؤلاء هم أولياء الله، جمعوا بين الإيمان وبين التقوى، وبين العلم النافع والعمل الصالح، هؤلاء أولياء الله، ليس أولياء الله من خرج على شرع الله وغير دين الله، ودعا إلى عبادة القبور والأضرحة، هذا ولي الشيطان.

وليس الولي هو الساحر والكاهن والخرافي الذي يظهر للناس مخاريق سحرية، ويقول: هذه كرامات!! وهي في الحقيقة مخاريق شيطانية.

قوله: « ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]»:

محبة الله هي أعظم أنواع العبادة، وعلامة محبة الله: اتباع الرسول ﷺ، فالذي لا يتبع الرسول ليس وليًّا لله، ولا يحب الله، وهؤلاء المخرفون يقولون: لا يكون وليًّا لله إلا إذا خرج عن طاعة الرسول ﷺ، فهم عندهم الولاية في الخروج من سنة الرسول ﷺ والاعتماد على الخرافات والبدع، هذه هي الولاية عندهم!!

هم يقولون: نحن نعبد الله لأننا نحبه، لا نعبده خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته، وإنما نعبده لأننا نحبه.

فيقال لهم: تحبونه على طريقة من؟ هل تحبونه على طريقة الرسول ﷺ، أو على طريقة غيره؟ إنه لا يحب الله إلا من اتبع الرسول ﷺ، هذا هو الفاصل بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

قوله: « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54]»:

هذه صفات أولياء الله، أنهم يحبون الله ويحبهم الله، ويكونون ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54] يعني: يحبون المؤمنين، وفيهم ولاء للمؤمنين، وفيهم بغض وبراءة من المشركين ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54] هذه أربع صفات هي صفات أولياء الله، وأما الذين يأمرون بعبادة غير الله يدعون من في القبور والأموات والأضرحة، ويسمون خوارق الشيطان كرامات من الله، فهذه صفات أعداء الله.

قوله: « ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62]»:

فأنت تأخذ من هذه الآيات الثلاث صفة أولياء الله، الأولى في سورة آل عمران، والآية الثانية في سورة المائدة، والثالثة في سورة يونس، فيها صفات أولياء الله، من اتصف بضدها فهو ولي الله، ومن اتصف بضدها فهو ولي للشيطان.

قوله: «ثم صار الأمر عند أكثر من يدّعي العلم...»:

إذا خرج عن الشرع، يقال عندهم: هذا عارف وصل إلى الله ليس بحاجة إلى اتباع الرسول، يأخذ من الله مباشرة.

يقولون: أنتم تأخذون دينكم عن ميت عن ميت -يعني: بالأسانيد- ونحن نأخذ ديننا عن

الحي الذي لا يموت، يزعمون أنهم يأخذون عن الله مباشرة.

ومن يأخذ عن الرسل فليس من الأولياء عندهم، فلا يكون وليًا عندهم إلا من خرج عن طاعة الرسول ﷺ.

ولا يصير الولي الآن في عرف كثير من المتأخرين إلا من بُني على قبره قبة أو مسجد، أما المدفون الذي دفنه على السنة الذي لم يوضع على قبره شيء، فهو عندهم ليس بولي ولو كان من أفضل الناس.

ثم أيضًا عندهم الولي له زيٌ خاص، بأن يلبس عمامة ويلبس ثوبًا خاصًا.

يقول ابن القيم رحمه الله: ليس لأولياء الله علامة يتميزون بها، بل يكونون كسائر الناس ما يعرفون، والرسول ﷺ يقول: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[27]

هذه صفات أولياء الله أنهم لا يظهرون أنفسهم، بل يحرصون على الاختفاء؛ لأجل الإخلاص لله عز وجل.

إذن من صفات أولياء الله: التواضع، والاختفاء، وعدم الظهور.

قال الشيخ خالد المصلح:

ولاية الله عز وجل لا تنال بالدعوى، وإنما تكون بالالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن كان لله تقيًا كان لله وليًا.

الولاية لله عز وجل وما تحصل به، الفرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الأصل الخامس: بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله والمنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية في سورة آل عمران، وهي قوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: 31] الآية.

وآية في سورة المائدة، وهي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: 54] الآية.

وآية في سورة يونس، وهي قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: 62-63]، ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هُداة الخلق وحفّاظ الشرع إلى أن أولياء الله لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومن تبعهم فليس منهم،

---

(27) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الضعفاء والخاملين، برقم (2622)، والبيهقي في «الشعب» (7/ 331)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولا بد من ترك الإيمان والتقوى، فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم، يا ربنا! نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء».

هذا هو الأصل الخامس من هذه الأصول الستة المفيدة العظيمة.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في هذا الأصل: «بيان الله سبحانه لأولياء الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله والمنافقين والفجار».

هذا كالعنوان لهذا الأصل؛ فإن الشيخ رحمه الله يريد أن يقرر في هذا الأصل أن القرآن الكريم قد بيّن بيانًا واضحًا لا لبس فيه ولا اشتباه، ولا شك في الفرق بين أولياء الله وبين أولياء الشيطان؛ فإن أولياء الله أولياء الرحمن لهم أوصاف ميّزهم الله سبحانه وتعالى بها في كتابه، وذكر ذلك لئلا يشتبه حال أولياء الله بأولياء الشيطان؛ لأن من أولياء الشيطان من يلبِّس على الناس، فيظهر ولايته للرحمن، وأنه من عباد الله الصالحين الأتقياء الأنقياء، والأمر على خلاف ذلك، فلما كان مدّعو الولاية كُثُرًا بيَّن الله سبحانه وتعالى الفصل بين هؤلاء وبين غيرهم، وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالةً لطيفةً سمّاها «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ذكر فيها ما وصف الله سبحانه وتعالى به أولياءه، وما ميزهم به عن أولياء الشيطان، وذكر فيها أشياء كثيرةً مفيدة.

تعريف الولاية ومدارها

قال رحمه الله تعالى: «بيان الله سبحانه لأولياء الله».

أولياء: جمع ولي. والولي: مأخوذ من الولاية، والولاية: مصدر «وُلِيَ»، وهي بمعنى القرب، تقول: وَلِيَ كذا كذا: أي: قرب منه.

وعلى هذا فإن الولاية تدور على أمرين: المحبة، والنصرة، وقد أثبت الله جل وعلا في كتابه ولايته لبعض خلقه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: 257]، فأثبت سبحانه وتعالى ولايته للمؤمنين، كما أن الله سبحانه وتعالى نفى أن يكون له وليٌّ، لكن الولي المنفي غير الولي المثبت، فالولي المنفي مقيد؛ حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: 111] أي: لم يكن له وليٌّ يستنصر ويعتز ويتقوى به فولاية الله عز وجل لمن يتولاهم ليست عن حاجة، ولا عن افتقار، بل هو الغني الحميد جل وعلا، وإنما ولايته سبحانه وتعالى لمن يتولاه هي ولاية رحمة ومنة وفضيلة ومنحة منه جل وعلا وإكرامٍ لمن يتولاه، نسأل الله أن نكون منهم.

إذن، الولاية المثبتة لله عز وجل هي غير الولاية المنفية.

والولاية على اختلاف مواردها تدور على معنيين: المحبة، والنصرة، ويقابل الولاية

العداوة، وهي دائرة على البغضاء والكره، فأعداء الله هم من أَبْغَضَهم سبحانه وتعالى وأبعدهم وكرههم جل وعلا، فالعداوة مبنية على الإبعاد والكره والبغض، والولاية مبنية على المحبة والنصرة، والله سبحانه وتعالى قد بين أوصاف أوليائه.

وقد لخص الشيخ رحمه الله هذه الأوصاف المذكورة في هذا المقطع القصير من كلامه رحمه الله، لكن من المهم أن نفرق بين أولياء الله وغيرهم، حتى لا يشتبه الأمر، فأولياء الله عز وجل لا يتميزون عن غيرهم بمظهر، بل هم كغيرهم من أهل الإسلام، لا يتميزون عنهم بلباس ولا بهيئة، لكنهم يتميزون عن غيرهم بعملهم الصالح، فالمظاهر لا تميز فيها، لكن المخابر والأعمال هي التي يدور عليها التمييز بين أولياء الله، وبين غيرهم من الناس.

فما هو العمل الذي يميز أولياء الله عن غيرهم؟

قال رحمه الله تعالى في بيان ذلك: «ويكفي في هذا» أي: في بيان الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان «آية في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[31]» فقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ هذا هو المعيار الفارق والميزان الدقيق لبيان حقيقة الولاية، فالولاية التي يثبت بها للمؤمن الانتساب إلى الله بالولاية هي أن يكون متبعًا للنبي ﷺ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، فعلى قدر ما يكون مع الإنسان من اتباع هدي النبي ﷺ يكون عنده بقدر ذلك من ولاية الله له، وبقدر ما يكون معه من تقصير فإنه ينقص عنه من ولاية الله له بقدر ما حصل منه من التقصير، والناس في هذا درجات متفاوتة، لا يحدها وصف.

فالسمة الأولى لأولياء الله التي يتميزون بها عن غيرهم هي اتباع النبي ﷺ، واتباع النبي ﷺ يكون في أمرين: فيما فرض -وهذا في الدرجة الأولى- وفيما ندب إليه من الأعمال -وهذا في الدرجة الثانية- ولذلك قال النبي ﷺ: «**قال الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»، ثم بعد أن ذكر جزاء الأولياء وانتصار الله لهم قال: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل**»، وهذا طريق تحصيل الولاية، قال: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»، فذكر الطريقين اللذين يحصل بهما ولاية الله عز وجل، وهذا تفصيل لما أجملته هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾.

فالاتباع للنبي ﷺ يكون في الفرائض أولًا؛ لأنها أحب ما يتقرب به إلى الله عز وجل، ثم بالنوافل ثانيًا. ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وإذا أحب الله عبدًا فقد تولاه.

ثم قال رحمه الله تعالى: «وآية في سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[54]»، وهذا فيه الإشارة إلى معنى الولاية، وأنها دائرة على المحبة، فهناك قال: ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وهنا قال: ﴿ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ ﴾، ثم ذكر أوصافهم فقال: ﴿ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾، فذكر ثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلا علو عندهم ولا استكبار ولا ارتفاع.

الوصف الثاني: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لا يذلون لهم؛ لأن معهم سبب العزة، وهو الإيمان بالله ورسوله.

الوصف الثالث: الجهاد في سبيل الله. وهو شامل لجميع أنواع الجهاد، وأعلاها جهاد الكفار المعاندين لله ورسله، فهذا من أوصافهم، والجهاد لا يأخذ صورةً واحدة فقط، فلا يقتصر على الجهاد بالسيف والسنان، بل هناك جهاد آخر قد يكون أعظم منه، وهو جهاد العلم والبيان، فالذي يبلغ شريعة الله عز وجل وينصح الناس ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر هو من المجاهدين الذين يدخلون في قوله تعالى في آية المائدة: ﴿ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾، فهذا يشمل جميع أنواع الجهاد.

وهذا تفصيل؛ لأن قوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فيه بيان مجمل هدي النبي ﷺ في كل شأن، وهنا فيه ذكر صفات خاصة وتخصيصها لعظيم أثرها في تحقيق وتحصيل الولاية.

ثم قال: «وآية في سورة يونس، وهي قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[62]»، وهذا فيه البشارة لهم بانتفاء المخاوف والأحزان عنهم، فقوله تعالى: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا فيما يستقبلون، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هذا فيما مضى.

والإنسان إنما يلحقه الأذى من خوف المستقبل، أو فوات الخير في الماضي، فإذا حصل له الأمن من هذين الأمرين كان من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهو في غاية الطمأنينة والسعادة.

ثم بين سبحانه وتعالى مَن هم أولياء الله فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ الذين آمنوا بقلوبهم فصلحت قلوبهم واستقامت أفئدتهم، وكانوا يتقون في أعمالهم وجوارحهم.

والتقوى هنا: هي فعل ما أمر الله سبحانه وتعالى به وترك ما نهى عنه، وهذا وصف شامل يتميز به أولياء الله عن غيرهم.

ومما تقدم نعلم أن الولاية ليست مكتسبةً بالنسب، ولا مكتسبةً بالجاه، ولا مكتسبةً بالوراثة، ولا مكتسبة بملبسٍ معينٍ، أو بانتسابٍ إلى جهة معينةٍ كمذهبٍ أو غيره، إنما تكتسب بالعمل الذي دائرته الكبرى هي اتباع النبي ﷺ، وتقوى الله، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

قال رحمه الله: «ثم صار الأمر عند أكثر من يدّعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشريعة إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل»، وهذا في وقته رحمه الله؛ حيث هجرت السنة، وتعصب الناس لما كانوا عليه من مذاهبَ وأقوالٍ، وآراء، وأصبح المتَّبِعُ للنبي ﷺ غريبًا بينهم.

ثم قال: «ومن تبعهم فليس منهم» أي: ومن تبع هؤلاء الذين استقاموا على الكتاب والسنة فليس منهم، يعني: فليس من أولياء الله؛ لأنه إذا كان الداعي إلى الكتاب والسنة عند هؤلاء الذين تحدث الشيخ عنهم ليس من أولياء الله، فما هي حال غيرهم ممن هو تابع لهم؟

الجواب: أنه لا يكون من أولياء الله من باب أولى.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ولا بد من ترك الجهاد».

هذا انتقال إلى تفصيل ما عليه أولئك الذين وصفهم رحمه الله ممن يدعون ولاية الرحمن وهم على خلاف ذلك، قال: «لا بد من ترك الجهاد»، وذكر الجهاد رحمه الله تعالى لأن الله سبحانه وتعالى جعل المجاهدين أولياءه، في قوله جل وعلا: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فخالفوا النص القرآني الدال على أن الجهاد في سبيل الله من أسباب تحصيل الولاية ومن أوصاف أولياء الرحمن، فلا بد عندهم من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، والقرآن يدل على عكس هذا، وهو أن الجهاد من أوصاف أولياء الله سبحانه وتعالى.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ولا بد من ترك الإيمان أيضًا».

وهذا لكون الإيمان قد جاء في القرآن أنه من أوصاف أولياء الله، كما في قوله جل وعلا: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

ثم قال: «فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم» أي: من اتصف وحافظ على هذين الوصفين فليس من هؤلاء الأولياء المزعومين.

وهؤلاء هم في الحقيقة أولياء الشيطان لا أولياء الرحمن؛ لأن أولياء الرحمن هم من وصفهم الله في كتابه، وأما هؤلاء فهم معاندون، معارضون، وكل من ادعى الولاية فلا بد من عرضه على

الكتاب والسنة، فإن ادّعى الولاية أو أدُّعيت له الولاية -إذ قد لا يدعي الولاية لنفسه فيقول: إني ولي، لكن قد يزعم اتباعه أنه ولي- فلا بد حينئذٍ أن نعرض حال هذا الرجل على هذه الموازين الدقيقة والمعايير الناطقة المميزة لأولياء الرحمن عن غيرهم، وبذلك يتبين هل هو من المتبعين للكتاب والسنة، وهل هو من المجاهدين في سبيل الله.



الأصل السادس

رد الشبة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسُّنَّة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي أن القرآن والسُّنَّة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافا، لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر، فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضًا حتمًا لا شك ولا أشكال فيه، ومن طلب الهدى منها فهو إما زنديق، وإما مجنون لأجل صعوبة فهمها فسبحان الله وبحمده، كم بين الله سبحانه شرعًا وقدرًا، خلقًا وأمرًا في رد هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ **[يس: 7- 11]. آخره والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.**

قال ابن العثيمين:

قوله: «رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسُّنَّة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة... إلخ»

الاجتهاد لغة: بذل الجهد لإدراك أمر شاق.

واصطلاحًا: بذل الجهد لإدراك حكم شرعي.

والاجتهاد له شروط:

1 - منها أن يعلم من الأدلة الشرعية ما يحتاج إليه في اجتهاده كآيات الأحكام، وأحاديثها.

2 - أن يعرف ما يتعلق بصحة الحديث، وضعفه كمعرفة الإسناد، ورجاله، وغير ذلك.

3 - أن يعرف الناسخ والمنسوخ، ومواقع الإجماع؛ حتى لا يحكم بمنسوخ، أو مخالف للإجماع.

4 - أن يعرف من الأدلة ما يختلف به الحكم من تخصيص أو تقييد أو نحوه؛ حتى لا يحكم بما يخالف ذلك.

5 - أن يعرف من اللغة وأصول الفقه ما يتعلق بدلالات الألفاظ كالعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، ونحو ذلك؛ ليحكم بما تقتضيه تلك الدلالات.

6 - أن يكون عنده قدرة يتمكن بها من استنباط الأحكام من أدلتها.

والاجتهاد يتجزأ فيكون في باب واحد من أبواب العلم، أو في مسألة من مسائله، والمهم أن المجتهد يلزمه أن يبذل جهده في معرفة الحق، ثم يحكم بما يظهر له، فإن أصاب فله أجران: أجر على اجتهاده، وأجر على إصابة الحق؛ لأن في إصابة الحق إظهارًا له وعملًا به، وإن أخطأ فله أجر

واحد، والخطأ مغفور له؛ لقوله ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر**»[28] ، وإن لم يظهر له الحكم وجب عليه التوقف، وجاز التقليد حينئذ للضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل، الآية: 43] .

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:«إن التقليد بمنزلة أكل الميتة فإذا استطاع أن يستخرج الدليل بنفسه فلا يحل له التقليد» وقال ابن القيم -رحمه الله- في النونية :

العلـم معرفـة الهـدى بـدليل ... مـا ذاك والتقليد يـسـتويان

والتقليد يكون في موضعين

الأول: أن يكون المقلد عاميًا، لا يستطيع معرفة الحكم بنفسه، ففرضه التقليد؛ لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: 43] . ويقلد أفضل من يجده علمًا وورعًا، فإن تساوى عنده اثنان خير بينهما.

الثاني: أن يقع للمجتهد حادثة تقتضي الفورية، ولا يتمكن من النظر فيها، فيجوز له التقليد حينئذ. **والتقليد نوعان: عام وخاص . فالعام**: أن يلتزم مذهبًا معينًا يأخذ برخصه وعزائمه في جميع أمور دينه، وقد اختلف العلماء فيه:

فمنهم من حكى تحريمه؛ لما فيه من الالتزام المطلق لاتباع غير النبي ﷺ ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن في القول بوجوب طاعة غير النبي ﷺ في كل أمره ونهيه هو خلاف الإجماع، وجوازه فيه ما فيه».

والخاص: أن يأخذ بقول معين في قضية معينة، فهذا جائز إذا عجز عن معرفة الحق سواء الاجتهاد سواء عجز عجزًا حقيقيًا، أو استطاع ذلك مع المشقة العظيمة.

وبهذا انتهت رسالة الأصول الستة.

فنسأل الله تعالى أن يثيب مؤلفها أحسن الثواب، وأن يجمعنا وإياه في دار كرامته

إنه جواد كريم .. والحمد لله رب العالمين.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة»:

هذا هو الأصل الأخير وهو مهم جدًا، وهو أنهم يقولون: إنا لا نعرف معاني الكتاب

(28) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.

والسنة، ولا يمكن أن نعرفها، لا يعرفها إلا العلماء الكبار.

فيقال لهم: القرآن فيه أشياء واضحة يعرفها العامي المتعلم، تقوم بها الحجة على الخلق، وفيه أشياء لا يعرفها إلا العلماء، وفيه أشياء لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

نعم يوجد في القرآن والسنة أمور لا يعرفها إلى المجتهد المطلق، لكن توجد أشياء كثيرة يعرفها العوام، ويعرفها المتعلم الذي حاز على قدر يسير من العلم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: 36]، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: 72]. ومثل: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: 32]. ومثل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: 3]. ومثل: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: 30]. هذه أمور واضحة يعرفها العامي إذا سمعها.

قوله: «والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا»:

يضعون شروطًا للمجتهد المطلق قد لا توجد تامة فيمن هم من أفضل الناس مثل أبي بكر وعمر، وهذه الشروط وضعوها من عند أنفسهم. يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: 82] هذا عام للمسلمين. كل يعرف من القرآن ما يسر الله له، فالعامي يحصل على ما يستطيع، والمتعلم يحصل على ما يستطيع، والراسخ في العلم يحصل على ما يستطيع: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: 17] كل واد يأخذ من السيل قدره، كذلك العلم أنزله الله، وكل قلب يأخذ منه بقدر، قلب العامي وقلب المتعلم وقلب العالم وقلب الراسخ في العلم، كل واحد يأخذ بقدره، وبقدر ما أعطاه الله من الفهم، أما أنه لا يفهم شيئًا من القرآن إلا المجتهد المطلق، فهذا كلام غير صحيح. ويقولون: محاولة فهم القرآن من التكليف بما لا يستطاع، والشروط التي ذكرها العلماء وقالوا لا بد أن تتوفر في المفتي يريدون بها: المجتهد المطلق. ولا يريدون أنها لا بد أن تتوفر في كل من يريد أن يتدبر القرآن ويستفيد منه، ثم هي شروط لاستنباط الأحكام الغامضة الخفية، وليست شرطًا في فهم الأمور الواضحة مثل التوحيد والشرك، والواجبات الظاهرة والمحرمات الظاهرة.

قوله: «﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾... [يس: 7-11]»: هذه الآيات في المعرضين عن تدبر كلام الله وكلام رسوله ﷺ وفي آخرها الذي منّ الله عليه وهو ﴿ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ [يس: 11] فهذا مثل للفريقين.

قوله: «آخره والحمد لله رب العالمين»: ختم الرسالة بمثل ما بدأها به بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله، وهذا من محاسن التأليف والتعليم، وذلك بالثناء على الله أولًا وآخرًا.

والصلاة والسلام على رسوله معلم الخير والداعي إلى الله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه وتمسك بسنته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

قال الشيخ خالد المصلح:

باب الاجتهاد مفتوح لكل من كان أهلًا له إلى قيام الساعة، ومن قال بإغلاق باب الاجتهاد فقد أخطأ، بل ويلزم من قوله فتح باب التقليد على أوسع أبوابه.

الاجتهاد بابه مفتوح لمن كان أهلًا له. يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الأصل السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي: أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد المطلق هو الموصوف بكذا وكذا؛ أوصافًا لعلها لا توجد تامة في أبي بكر و عمر.

فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضًا حتمًا لا شك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون؛ لأجل صعوبة فهمهما، فسبحان الله وبحمده! كم بيّن الله سبحانه شرعًا وقدرًا خلقًا وأمرًا في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: 57]، ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: 7-11].

آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين».

هذا هو آخر الأصول الستة من هذه الرسالة المباركة التي سماها الشيخ رحمه الله «ستة أصول عظيمة مفيدة».

يقول رحمه الله: «الأصل السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، و -وهذه الشبهة- هي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد المطلق هو الموصوف بكذا وكذا أوصافًا لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر».

هذا الأصل السادس والأخير هو دعوة من الشيخ رحمه الله إلى تدبر كتاب الله عز وجل، والإقبال على الانتفاع بسنة رسول الله ﷺ، وأن ينظر الإنسان في هذين الأصلين العظيمين اللذين يضمن لمن أخذ بهما نجاة الدنيا والآخرة؛ فإن الإقبال على الكتاب والسنة هو سبيل

السلف الصالح، وهو طريقهم، فهذه الشبهة منعت كثيرًا من الناس من الإقبال على الكتاب السنة، والشيخ رحمه الله يريد أن يفند هذه الشبهة، وهذه الشبهة هي: أن الكتاب والسنة لا يفهمها كل أحد، إنما يفهمها المجتهد المطلق، أو يستنبط منها المجتهد المطلق.

قال رحمه الله تعالى: «والمجتهد المطلق هو الموصوف بكذا وكذا» كنى عن الصفات التي ذكروها مطولةً في كتب أصول الفقه بقوله كذا وكذا.

ثم قال رحمه تعالى عن هذه الشروط: «أوصافًا لعلها لا توجد تامة في أبي بكر و عمر»، وحقيقة أنها لا توجد في أبي بكر و عمر ؛ لأنهم يشترطون أن يكون المجتهد محيطًا بسنة رسول الله ﷺ لا يغيب عنه منها شيء، وهذا ليس في أبي بكر، ولا في عمر ؛ فإن أبا بكر رضي الله عنه رجع إلى الصحابة يسألهم عن سنة رسول الله ﷺ، و عمر رجع إلى الصحابة يستشيرهم ويسألهم: هل عندهم عن رسول الله ﷺ خبر.

فهذه الشروط المطولة التي لا تنطبق على أحدٍ من الناس فضلًا عن العلماء في متأخري الزمان كانت حائلًا بين كثيرٍ من أهل العلم وبين أن يستفيدوا من الكتاب والسنة، فمنعت الناس من الاجتهاد، وقَصَرَتهم على تقليد المتقدمين في أقوالهم؛ لأنهم لا يستطيعون أن يستفيدوا من الكتاب والسنة، وهذا غلطٌ كبير، وهو الذي سبب إغلاق باب الاجتهاد في بعض العصور، وأصبح المجتهد -كما قال المؤلف رحمه الله-: إما زنديقًا أو مجنونًا، يعني: منافقًا أو مجنونًا، فلا يُقْدِم عليه إلا من تحمل هذين الوصفين، فامتنع الناس عن الاجتهاد، واقتصروا على التقليد، ولا شك أن الاجتهاد بابه مفتوح، ولكن ليس الاجتهاد أن يُعْمِلَ الإنسان الضعيف البضاعة رأيه في نصوص الكتاب والسنة فيأتي بما لم يأتِ به الأولون، بل لا بد أن يكون عنده حد كافٍ من أوصاف المجتهد من العلم باللغة، والمعرفة بالكتاب وبالسنة، والمعرفة بقواعد الشريعة التي تمكنه من التوصل إلى الحكم، وأما هذه الشروط المطولة التي يذكرها علماء الأصول فهي نظرية فقط، ولو طبقتها على من اشترطها لم تجدها فيه؛ فإنه لا يصح ولا يسوغ.

قال رحمه الله تعالى في هذا الأصل: «رد الشبهة» والشبهة: هي: عارض يعرض للقلب، يمنعه من تصور الأمور على حقيقتها، فيحصل بها اشتباه والتباس، فلا يميز الذي اشتبه عليه الأمر بين الحق والباطل.

وقال رحمه الله تعالى: «التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة» أي: لأجل ترك القرآن والسنة، فهي سبب لترك القرآن والسنة، وسبب في اتباع الآراء والأهواء المتفرقة، وهو التقليد، وسماه اتباعًا تنزلًا، وهو في الحقيقة تقليد وليس اتباعًا.

ثم قال: «فإن لم يكن الإنسان كذلك -يعني: موصوفًا بهذه الصفات التي اشترطوها

للمجتهد المطلق- فليعرض عنهما فرضًا حتمًا لاشك ولا إشكال فيه»، وهذا خلاف ما أمر الله به في كتابه، والله عز وجل قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: 82]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: 24]، وقال جل وعلا: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص: 29] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد: 4]، كل ذلك دعوة إلى التفكر والتأمل الذي يثمر الاستنباط ونتائج الاجتهاد، فالاجتهاد نتيجة للتفكر والتأمل والنظر في كلام الله عز وجل فمن لم ينظر في كلام الله عز وجل ولم يتدبره فإنه لا يتوصل إلى ما يريد من استنباطات حكميةٍ أو شرعية؛ فإن سبيل حصول الحكم هو التدبر والنظر.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون» يعني: لأجل صعوبة فهمهما وهذا غلط، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: 17]، فالله يسر القرآن، وهؤلاء يقولون: إنه عسير وتيسير القران هو تيسير قراءته وفهمه، وليس تيسير القراءة اللفظية؛ فإن القراءة اللفظية على العرب في ذلك الوقت كانت من أسهل ما يكون، ولكن الكلام في تيسير الفهم وتسهيله، وهذا ما تميز به القرآن، فإنه يفهمه العامي ويفهمه العالم، لكن هذا القدر المشترك بين العامي والعالم ليس مانعًا من أن يتفاضل الناس في فهمه، فمن الناس من يؤتى فهمًا عميقًا في القرآن، ومنهم من يقتصر على فهم اللفظ في حده الأدنى، ويشهد لهذا تفاضل الصحابة رضي الله عنهم، مع أنهم أهل اللسان في فهم آي القرآن، فهذا ابن عباس رضي الله تعالى عنه يفهم من قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾[النصر: 1-3]، ما لم يفهمه كبار المهاجرين والأنصار، كما جرى ذلك في قصته مع عمر رضي الله تعالى عنه لما سأله عن هذه السورة؛ فإنه سألهم أولًا عن السورة فقالوا: هذه سورة أمر الله فيها رسوله بالتسبيح عند حصول الفتح وهذا معنى واضح يدركه كل صاحب لسان، لكن الذي فهمه ابن عباس هو أمر زائد على هذا، وهو أن هذه السورة نعت إلى النبي ﷺ نفسه، وأنها أخبرته بدنو أجله، وهذا فهم دقيق ما يتوصل إليه إلّا من أعمل فكره ونظر وتأمل في هذا الكتاب العظيم، وفي سياق الكلام وسباقه.

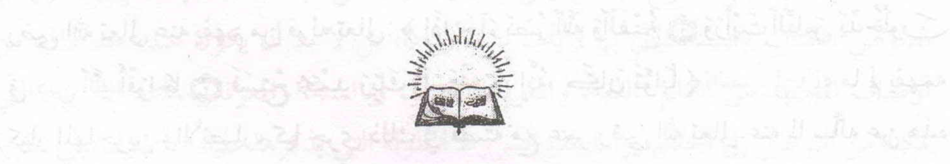
ثم قال رحمه الله تعالى: «فسبحان الله وبحمده! كم بين الله سبحانه شرعًا وقدرًا خلقًا وأمرًا في رد هذه الشبهة الملعونة من وجوهٍ شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة -ومن ذلك ما ذكرناه من إخبار الله عز وجل بتيسير القرآن- ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: 57].

ثم قال رحمه الله في الاستدلال على سوء حال هؤلاء، وأنهم إنما مُنعوا فهم القرآن لشيء

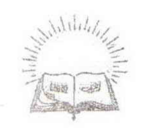
فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 8-11].

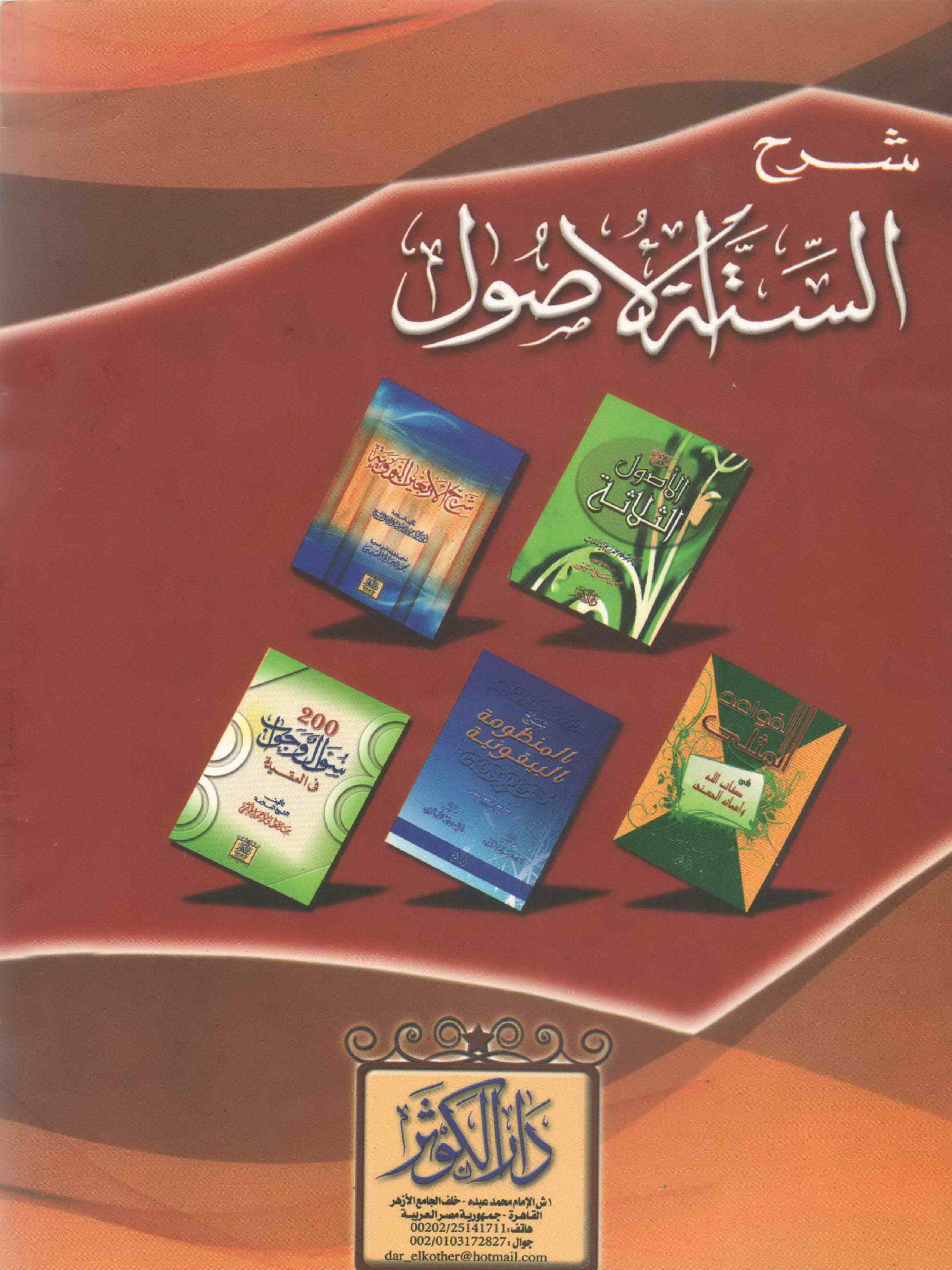
فقوله تعالى: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ» المراد بالقول هنا قول الله سبحانه وتعالى وهو ما سبق في علمه وكتابه من أن هؤلاء لا ينتفعون بالقرآن، «عَلَى أَكْثَرِهِمْ» أي: على أكثر الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ.

ويمكن أن يكون المعنى: على أكثر الناس فهمًا، «لا يُؤْمِنُونَ» أي: لا يصدقون ولا ينقادون ولا تطمئن قلوبهم بما جاءت به الرسل، «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالًا»: «في» للظرفية، وتصلح أن تكون بمع.



الفهرس




شرح
الستة الأصول
شرح الأربعين النووية
شرح الأصول الثلاثة
200 سؤال وجواب في العقيدة
شرح المنظومة البيقونية
القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى
دار الكوثر
١ ش الإمام محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 00202/25141711
جوال: 002/0103172827
dar_elkother@hotmail.com